
الرسالة

5 me Année, No. 194

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 22 - 3 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٣٤٠٠٥

العــــدد ١٩٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٩ محرم سنة ١٣٥٦ — ٢٢ مارس سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العــــدد

جميل صدقى الزهاوى

بمناسبة ذكراه الأولى

(٣)



كأنما تفتح عقل الزهاوى قبل أن يتيقظ هواه ، وحلق فكره قبل أن ينهض خياله ، وادرك علمه قبل أن يولد شعره ! فلقد كان يهدف للثلاثين من عمره وليس له من أولمب الشعر وحى ، ولا فى برناس الشعراء محل ؛ إنما كان فى صدر شبابه ينظر فى العلوم الفلسفية والطبيعية ؛ وسبيله إلى ذلك ما تُرجم من المقالات فى الكتب والمجلات ، لأنه لم يعرف من اللغات غير العربية والفارسية والتركية والكردية ، وكلها لا تصل فكر الانسان بالتطور ، ولا تنقع غلة الظمآن الى المعرفة . ومع ذلك استبطن الزهاوى دخائل هذه العلوم بعقله النافذ حتى

ألف كتاب (الكائنات) فى الفلسفة، وكتاب (الجاذبية وتعليلها) فى الطبيعة، ذهب فيهما مذهباً خالف به أقطاب العلم وجهابذة النظر، كقوله: إن علة الجاذبية ليست جذب المادة للمادة، وإنما هى دفعها لها بسبب ما تشعه من الألكترونات. وسواء أنهض دليله أم دحض فإنه يدل على النظر الثاقب والفكر المستقل. ورجاحة عقله هى التى حملته وهو فى ربيع العمر على أن يشرف على ظواهر الكون وحقائق الوجود من سماء فكره لا من سماء خياله؛ والمعهود فى عامة الشعراء أن يكونوا على النقيض من ذلك. فلما هيأته الاقدار الجميلة لرسالة الشعر كان فكره أقوى من خياله وأسمى من عاطفته؛ والفكر والخيال والعاطفة هن ملكات النفس الأدبية الثلاث، يصدر عنهن فيض القريحة، ويَرِد إليهن إلهام العبقرية؛ ولكن الشعر لا يهيمن عليه إلا الخيال والعاطفة؛ أما حاجته إلى الفكر فمحدودة بمقدار ما يضيء لهما الطريق حتى يأمنا الضلالة. فالفكر للعبقرية بمثابة العين، والخيال والعاطفة لها بمثابة الجناحين، فاذا تغلبا عليه كان الشرود والزيغ، وإن تغلب عليهما كان الجفاف والعقم؛ ومن هنا جردوا أكثر ما قال أبو العلاء وأقل ما نظم أبو الطيب من الشاعرية. والزهاوى شاعر من شعراء الفكرة، له البصيرة الناقدة والفطنة النافذة، وليس له الأذن التى «تموسق [1]»، ولا القريحة التى تصنع. فاللفظ قد لا يختار، والوزن قد لا يتسق، والاسلوب قد لا ينسجم، ولكن الفكرة الحية الجريئة تعج بين الأبيات المتخاذلة عجيج الأمواج المزبدة بين الشواطىء المنهارة

الزهاوى عقلية أفاقة وحيوية دفاقة وطبيعة ساحرة: وهذا التوثب الحماسى فيه هو الذى جعله يؤثر النظم فى تقييد خواطره. وهذه الحماسة قد تنفك أحياناً عن الفكرة لكلالها أو ابتذالها، فيذهب الشاعر، ولا يبقى الفيلسوف، ويكون الزهاوى معك كالآلة تدور مليئة متزنة ما دامت على شىء، فاذا نفدت مادتها على فجأة انطلقت تدور على الفارغ سريعة مضطربة، ذلك لأن الفكرة الفلسفية هى المادة الأصيلة فى شعر الزهاوى. وليس الشعر كله فكرة. وإنما هو فضلا عنها صورة يرسمها الخيال، وشعور تبعثه العاطفة. على أن فكرة الفيلسوف واضحة، وجمالها فى هذا الوضوح وفكرة الشاعر خفية، وسحرها فى هذا الخفاء. فإما أن تدرس الطبيعة لتعرفها وتشرحها فتكون صاحب فلسفة، وإما أن تدرسها لتقلدها وتصورها فتكون صاحب شعر. أما الخلط بين الفلسفة والشعر لأن الشاعر يدرس ظواهر الكون، فكالخلط بين التصوير والتشريح لأن المصور يدرس بواطن الجسم

* * *

كان الزهاوى كشوقى حريصاً على متابعة العصر ومسايرة التطور؛ ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد، وحس مرهف يأنف التخلف. ويزيد الزهاوى أن الفخر يزهاه، والتيه يذهب به، فيحب الثناء ويبغض النقد. فهو لفرقه من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد، ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأى إلى التطرف، ولطمعه فى نباهة الذكر يجارى ميول الخاصة ويعارض هوى العامة. ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم، وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة.

والزهاوى بعد هذا وفوق هذا كان رسولا من رسل الفكرة الانسانية، وبطلا من أبطال النهضة العربية. كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة فتتردد أصداؤها الموقظة على ربوات بردى، وخمائل النيل، وسواحل المغرب. وأدب الزهاوى وأمثاله هو الذى وصل القلوب العربية فى مجاهل القرون السود بخيوط النهية غير منظورة، حتى استطاعت اليوم أن تتعارف وتتآلف وتتحالف؛ ثم تسعى لتعود أمة كما كانت، وتقوى لتصبح دولة كما يجب أن تكون.

احمد حسن الزيات

عدد الرسالة الممتاز

ستصدر الرسالة على عادتها عددها السنوى الممتاز بمناسبة العام الهجرى الجديد، فى الأسبوع الثالث من المحرم. وسيكون بعون الله فاتحة لتطور جديد فى الرسالة نرجو أن يقع من قرائنا موقع الرضا.

(١) لا مانع فيما أظن من أن تشتق هذا الفعل من الموسيقى

حديث المال

بقلم ابراهيم عبد القادر المازنى

جلسنا ثلاثة من الاخوان نتحدث عن المال وكيف ينال - فقد مات زخاروف رجل الأسرار أو الظلام كما يسمونه وصار ذكره على كل لسان ولهجت الصحف بملايينه وأعماله الصحيحة أو الموهومة وأخذ عنها الناس وراحوا يلغطون . وأحسب ان لو كان زخاروف حيا واستطاع أن يسمع ما يروى عنه ويعزى اليه لأذهله ذلك ويكفى أنه مامن ثورة أو حرب شبت فى الخمسين سنة الأخيرة الا وهو فيما يقال مضرم نارها

وقلت لصديق : « أما أنا فلست أعرف وسيلة للغنى الا هذه - أفتح عينى فى الصباح وأدس يدى تحت الوسادة لاتناول الساعة وأنظر الى وجهها فاجد مكانها كوما عاليا من الأوراق المالية الكبيرة . وعلى ذكر هذه الأوراق الكبيرة أقول - ولافخر - إنى مارأيت ورقة بمائة جنيه الا مرة واحدة فى حياتى . . أم تراها كانت بخمسين فقط . . والله ما أدرى . . الحاصل . . أعطيتها لأبدلها وآخذ منها قدرا معينا وأرد الباقى فوضعتها فى جيب البنطلون وأبقيت كفى عليها خوفا من النشل وذهبت الى البنك - المصرف كما لا يسمى - ولا أطيل . وحسبى أن أقول ان الرجل كان ينظر الى نظرة من تحدثه نفسه بأنه يحسن حجزى حتى تجىء « النيابة » . . وصار معى عدد كبير من الورق فوضعت حتى فى جيب والباقى فى جيب آخر اتقاء للاختلاط والحاجة الى إعادة العد والحساب . وقد تعلمان كرهى لهذا الحساب أو جهلى به على الأصح . وجاء الليل - وكنت أعمل فى ذلك الوقت فى جريدة صباحية ، فانا أعمل بالليل وأنام بالنهار - وتذكرت انى على موعد مع صديق فى الساعة الحادية عشرة وكنت جائعا فقلت أذهب الى محل جديد فى شارع عماد الدين وآكل لقمة أو اثنتين من « السندويتش » ثم أذهب الى موعدى . وكنت قد وضعت الأوراق فى المحفظة - على خلاف عادتى - ولم يكن معى من النقود الصغيرة غير قرش واحد . وحدثتنى نفسى وأنا آكل انه يحسن ان أشترى شيئا من هذه الفاكهة فان منظرها مغر ، فاخرجت جنيها ولكن الزحام كان شديدا فكادت روحى تزهق ورأيت أن الأمر سيطول فدسست الجنيه فى جيبى وانصرفت ولقيت صاحبى على « القهوة » ، وعدت الى البيت فأحسست وأنا أخلع ثيابى ان « الجاكته » خفيفة فنظرت فيها فاذا المحفظة قد طارت . أى والله . قطع النشال الجيب بسكين أو موسى أو لا أدرى ماذا وأخذ المحفظة . . »

وعدنا بعد هذه الذكرى الأليمة الى زخاروف والملايين فقال أحد الصديقين : « لماذا لا نرى فى الشرق ناسا يصبحون أصحاب ملايين كما يحدث فى الغرب كثيرا . . »

فقال ثالثنا : « ان الغنى العريض الواسع يستفاد من الصناعة والتجارة لا من الزراعة فانها محدودة وكل عمل لا يقبل التوسيع والنماء المطردين لا يمكن ان تجىء منه ملايين ولا مايقرب منها »

فقلت : « ولا تنس ياصاحبى ان الخطار فى حكم المعدوم فى الشرق . ولا بد من المغامرة لطالب الثروة الكبيرة السريعة . ولعل إخواننا العرب أعظم منا جرأة واقداما وأكثر استعدادا للمغامرة . والمحقق أن المصريين اطلب للراحة والدعة والاطمئنان على الرزق . وهم يرضون بالقليل اذا كفل لهم الاطمئنان وقد كانوا الى بضع سنوات يعدون صاحب التجارة أحط مقاما من صاحب الزراعة وأحسب ان هذا لأن رزق الزارع مكفول ولكن الرزق من التجارة على كف عفريت . واسمعوا هذه الحكاية : لما عدت فى العام الماضى من العراق جاءنى صديق حميم وذكر لى ان له صاحبا يشتغل بصناعة الجلود وانه يرجو منى المعونة ليحتكر جلود الأضاحى فى موسم الحج فى الحجاز فقلت له : إنى أعرف أن الحكومة العربية تكره الاحتكارات ولا ترضى أن تظلم رعاياها على نحو ما يبغى صاحبك ثم إنى لا أستطيع أن أستغل علاقتى بهؤلاء القوم ، ولكنى أشير بما هو خير من ذلك وأجدى على صاحبك إذا كان عاقلا . . واقترحت عليه أن يؤلف صاحبه شركة مصرية عراقية لانشاء مصنع للجلود ومدبغة فى بغداد وقلت له : إنى أستطيع بمساعدة إخوانى فى مصر والعراق أن أقنع جماعة من العراقيين بالدخول فى هذه الشركة . ولصاحبك أن يدخل فيها بالقدر الذى هو فى طوقه . والجلود فى العراق وفيرة ورخيصة ، وجلبها من البلاد العربية إلى بغداد أسهل وأقل

كلفة من جلبها إلى مصر ، أما الأسواق فعديدة . فهناك أسواق العراق نفسها – والقوم هناك وطنيون عمليون يؤثرون صناعات بلادهم ، والحكومة عظيمة التشجيع لها ولا أعتقد أنها تتردد في أخذ حاجة جيشها من هذا المصنع إذا أنشىء ثم ان هناك أسواق جزيرة العرب وأسواق فلسطين وأسواق الشام وفي هذه البلاد كلها يفضل الرجل مصنوعات بلاده فالمشروع لا شك في حسن عائدته ولا خوف من الخسارة فيه وأنا مستعد أن أطلق الصحافة والأدب وأعمل معه وأقوم له بكل ما يستدعيه الحصول على رأس المال أولا واستيراد الجلود من الجهات المختلفة وتصريف المصنوعات في أسواق الجزيرة والعراق وفلسطين وسوريا ، فاقترح هذا على صاحبك وانظر ماذا يرى . . ووقف الأمر عند هذا الحد لأن في المشروع مخاطرة بالمال ! ! . ولست أدرى أين المخاطرة ولكن هذا ما كان . وهكذا ضاعت على فرصة حسنة للتحرر من رق الصحافة والأدب . »

فسألني أحدهما : « أو تكره الصحافة والأدب ؟ »

« قلت : لا أكرههما ولكن أعمل فيهما كالحمار ولا أفيد منهما إلا العناء . وإذا وسعني أن أهجرهما إلا ما هو خير وأجدى فلماذا لا أفعل ؟ وصدقني حين أقول لك إني لا أكف عن التفكير في وسيلة للنجاة منهما . وقد خطر لى أن أتخذ جراجاً « ولكن الجراج » لا يكون إلا محدوداً وأنا أريد عملا يحتمل التوسيع على الأيام . وخطر لى أن أتخذ مطبعة ولكني رأيت أن المنافسة الشديدة بين أصحاب المطابع توشك أن تؤدى إلى خرابهم جميعاً . وخطر لى أن أكون بائع « طعمية » وهذا لا يتطلب رأس مال يستحق الذكر ، واقتنعت بأن هذا خير ما يمكن أن أصنع وأنه أحسن وجه للخلاص من الصحافة ، فذهبت أبحث عن محل صالح ولكني كنت كلما عثرت على واحد واهتديت إلى مكان يمكن أن تروج فيه هذه البضاعة أجد أن غيرى قد سبقني . . ولكني لم أقنط من رحمة الله . . وما زلت أرجو أن أوفق إلى عمل صالح غير هذا الأدب الذى لا فائدة منه لأحد »

فسألني ثانيهما : « هل تتكلم جاداً ؟ »

قلت : « أي والله . . لقد قرأت كل ما وسعني أن أقرأ وكتبت كل ما دخل في طوقي أن أكتب ، فهل أفدت إلا الغرور والنفخة الكذابة والصيت الفارغ . . وإلا العداوات والخصومات التى لا داعي لها . . لا يا سيدى . . وإني لمستعد أن أنزل لك عن نبوغي وعبقريتي وخيالي الخصب ونشاطي الجم ولا أطلب إلا دكاناً صغيراً أقلي فيه « الطعمية » في سيدنا الحسين أو السيدة زينب أو في بولاق . . أقف فيه وأمامي المقلاة وإلى جانبي الزيت – زيت الزيتون من فضلك – والفول المدقوق وعلى ثوب أبيض نظيف وورائي الموائد مصفوفة وعليها الأباريق والأكواب . وأصص الزهر هنا وهناك . والأرض مفروشة بالرمل الأصفر ، فاني أريد أن أرقي صناعة « الطعمية » وأجعل منها فناً . . نعم ، خذ أدبي كله وخلودى أيضا إذا كانا يستحقان شيئاً واعطني هذا الدكان الصغير وزرني بعد ذلك وشرفني بالأكل عندى وعلى موائدى الأنيقة الجميلة واحسدني يومئذ »

وقمنا صامتين لأن كلامي هذا لم يعجبهما . . ولو أعجبهما لرجوت أن أقنعهما بهذه المبادلة . . ولكن لا بأس . . لا بأس . . ولا بأس أيضاً فلن أعدم صناعة أخرى أهتدى إليها في يوم من الأيام . والعمر الطويل يبلغ الأمل كما تقول العامة في أمثالها الحكيمة التى هي عصارة التجارب الانسانية على الدهور

ابراهيم عبد القادر المازني

قنبلة بالبارود

لا بالماء المقطر[1] ...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

حياكم الله يا شباب الجامعة المصرية ، لقد كتبتم الكلمات التي تصرخ منها الشياطين ...

— كلمات لو انتسبن لا نتسبت كل واحدة منهن إلى آية مما نزل به الوحي في كتاب الله .

— فطلب تعليم الدين لشباب الجامعة ينتمي الى هذه الآية : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجس » .

— وطلب الفصل بين الشبان والفتيات يرجع إلى هذه الآية : « ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن » .

— وطلب إيجاد المثل الأخلاقي لهذه الأمة من شبابها المتعلم هو معنى الآية : « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة »

— قوة الأخلاق ياشباب ، قوة الأخلاق . إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا

***

حياكم الله ياشباب الجامعة ؛ لقد كتبتم الكلمات التي يصفق لها العالم الاسلاميُّ كله

كلمات ليس فيها شيء جديد على الاسلام ، ولكن كل جديد على المسلمين لا يوجد إلا فيها .

كلمات القوة الروحية التي تريد أن تقود التاريخ مرة أخرى بقوى النصر لا بعوامل الهزيمة

كلمات الشباب الطاهر الذي هو حركة الرقي في الأمة كلها ، فسيكون منها المحرك للامة كلها

كلمات ليست قوانين ، ولكنها ستكون هي السبب في إصلاح القوانين .

قوة الأخلاق ياشباب ، قوة الأخلاق . إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا .

***

يريد الشباب مع حقيقة العلم حقيقة الدين ، فإن العلم لا يعلم الصبر ولا الصدق ولا الذمة .

يريدون قوة النفس مع قوة العقل ، فان القانون الأدبي في الشعب لا يضعه العقل وحده ولا ينفذه وحده .

— يريدون قوة العقيدة حتى إذا لم ينفعهم في بعض شدائد الحياة ما تعلموه ، نفعهم ما اعتقدوه .

يريدون السمو الديني ، لأن فكرة إدراك الشهوات بمعناها هي فكرة إدراك الواجبات بغير معناها .

يريدون الشباب السامي الطاهر من الجنسين ، كي تولد الأمة الجديدة سامية طاهرة

قوة الأخلاق ياشباب ، قوة الأخلاق . إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا

***

أحس الشباب أنهم يفقدون من قوة المناعة الروحية بقدر ما أهملوا من الدين

وما هي الفضائل إلا قوة المناعة من أضدادها ؟ فالصدق مناعة من الكذب والشرف مناعة من الخسة .

والشبابُ المثقل بفروض القوة هو القوة نفسها . وهل الدين إلا فروضُ القوة على النفس ؟

وشبابُ الشهوات شباب مفلس من رأس ماله الاجتماعي ينفق دائما ولا يكسب أبدا .

والمدارس تخرج شبانها إلى الحياة ، فتسألهم الحياة : ماذا تعوَّدتم لا ماذا تعلمتم ؟

قوة الأخلاق ياشبابُ ؛ قوة الأخلاق . إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا .

***

(١) رفع طلبة الكليات في الجامعة المصرية إلى مديرها وعمدائها وأساتذتها طلبا يلتمسون فيه إدخال التعليم الديني في الجامعة والفصل بين الشبان والفتيات إذ « لا إصلاح إلا بعد إصلاح روح الشباب الناهض حتى يكون له من قوة روحه وسمو أخلاقه سلاح يحارب به الرذيلة وينصر به الفضيلة » . قالوا : « ولا شك أن الامة بأسرها قد أحست بنقص الناحية الدينية في المجتمع المصري ، ونقص أخلاق الفرد ووطنيته تباعا »

وأحسَّ الشبابُ معنى كثرة الفتيات فى الجامعة ، وأدركوا معنى هذه الرقة التى خلقتها الحكمة خالقة .

والمرأة أداة استمالة بالطبيعة ، تعمل بغير إرادة ما تعمله بالارادة لأن رؤيتها أول عملها

نعم إن المغناطيس لا يتحرك حين يجذب ، ولكن الحديد يتحرك له حين ينجذب .

ومتى فهم أحدُ الجنسين الجنسَ الآخر ، فهمه بإدراكين لا بادراك واحد .

وجمالُ المرأة إذا انتهى إلى قلب الرجل ، وجمال الرجل إذا استقر فى قلب المرأة .

هما حينئذ معنيان ، ولكنهما على رغم أنف العلم معنيان متزوجان . . . .

* * *

لا ، لا ؛ يارجال الجامعة . إن كان هناك شىء اسمه حرية الفكر فليس هناك شىء اسمه حرية الأخلاق .

وتقولون : أوربا وتقليد أوربا . ونحن نريد الشباب الذين يعملون لاستقلالنا لا لخضوعنا لأوربا .

وتقولون : إن الجامعات ليست محل الدين . ومن الذى يجهل أنها بهذا صارت محلا لفوضى الأخلاق ؟

وتزعمون أن الشباب تعلموا ما يكفى من الدين فى المدارس الابتدائية والثانوية فلا حاجة إليه فى الجامعة

أفترون الإسلام دروساً ابتدائية وثانوية فقط ؛ أم تريدونه شجرة تغرس هناك لتُقلَع عندكم . . . ؟

لا ، لا ؛ يارجال الجامعة . إن قنبلة الشباب المجاهد تملأ بالبارود لا بالماء المقطر . . . .

* * *

إن الشباب مخلوقون لغير زمنكم ، فلا تفسدوا عليهم الحاسة الاجتماعية التى يحسُّون بها زمنهم

لا تجعلوهم عبيدَ آرائكم وهم شبابُ الاستقلال إنهم تلاميذكم ولكنهم أيضا أساتذة الأمة .

لقد تكلم بلسانكم هذا البناء الصغير الذى يسمى الجامعة .

وتكلم بألسنتهم هذا البناء الكبير الذى يسمى الوطن .

أما بناؤكم فمحدود بالآراء والأحلام والأفكار ؛ وأما الوطن فمحدود بالمطامع والحوادث والحقائق .

لا لا . إن المسلمين الذين هَدَوا العالم ، قد هدوه بالروح الدينية التى كانوا يعملون بها لا بأحلام الفلاسفة

لا لا . إن الفضيلة فطرة لا علم ، وطبيعة لا قانون ، وعقيدة لا فكرة ؛ وأساسها أخلاقُ الدين لا آراء الكتب

* * *

من هذا المتكلم يقول للأمة : « الجامعيون لن يقبلوا أن يدخل أحد فى شئونهم مهما يكن أمره » .

أهذا صوتُ جرس المدرسة لأطفال المدرسة ؟ : ترِن ترِنْ .... فيجتمعون وينصاعون ؟

كلا يارجل ، ليس فى الجامعة قالب يصَبُّ فيه المسلمون على قياسك الذى تريد .

إن التعليم فى الجامعة بغير دين يعصم الشخصية ، هو تعليم الرذيلة تعليماً عالياً

ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين » .

قوة الأخلاق ياشباب ، قوة الأخلاق . إن الخطوة المتقدمة تبدأ من هنا .

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

حمّـــام فرعون

للأستاذ حسن جلال

علمت وأنا فى مدينة الاسماعيلية بأن جماعة من رواد الجبال سبق لهم القيام برحلة إلى عين كبريتية فى جبل من الجبال التى فى جنوب مدينة السويس، وأنهم يعاودون التفكير فى تكرار هذه الرحلة ويتهيأون لها، فهفت نفسى إلى الاشتراك معهم لهوى قديم بينى وبين تلك الجهات كان يدفعنى منذ سنين إلى أن أقضى سحابة يوم الجمعة من كل أسبوع متقلباً بين ربوع جبال القاهرة وضواحيها.

وكانت تلك الجماعة تتألف من :

١ — أحد أعضاء مجلس النواب وشيخين من أقاربه.

٢ — ومن تاجر من كبار تجار الاسماعيلية

٣ — ومن تاجر آخر من عيون تجار القاهرة

٤ — ثم من رجل أجنبى من رجال الاعمال إيطالى الجنسية له مزارع واسعة فى حدود مدينة الاسماعيلية.

فأما عضو النواب وقريباه فكانوا يشكون الروماتزم، وكان هذا هو الذى يحفزهم الى ارتياد تلك العين، فان لها على ما يقول الناس خواص سحرية فى شفاء الأمراض.

وأما تاجر القاهرة فقد سمع بحديث تلك العين من النائب فأغراه ذلك على أن يجرب سحرها فى أوصاله.

وأما تاجر الاسماعيلية فكان على ما فهمت رجلا لا يحتاج إلى الاستشفاء لا بالحار ولا بالبارد، وكل همه فى الحياة أن يجلس آخر النهار فى بعض المقاهى ونرجيلته بين ركبتيه يمصها فتقهقه له حتى تنقطع أنفاسها فيخليها لصاحبها ويعود إلى داره راضياً مرضياً، وكانت الأسباب كلها منقطعة بينه وبين تلك الرحلة لولا أن له سيارة جميلة أحب صاحبنا النائب أن يضمها إلى القافلة فدعاه للاشتراك فلبى الدعوة.

وأما التاجر الايطالى فكان هو عماد الرحلة وبطلها لأنه كان قائدها الذى يدلها على الطريق فى وسط الأودية المهجورة والجبال المتشابهة، يعاونه على ذلك دليل بدوى ممن يعملون فى مزارعه، ولم يكن له من حافز ظاهر إلى الاشتراك فى الرحلة غير ميله إلى الرياضة، أما أن أمثال هذه الرحلة قد تساعده على تنمية معلوماته عن الصحارى المصرية وطرقاتها فهذا حديث آخر لا محل للخوض فيه الآن، وللقارىء أن يستنتج لنفسه ما يشاء...

***

هؤلاء هم أشخاص الجماعة

أما النبع نفسه فقد سمعت أنه نبع حار يخرج من الصخر، ويصب فى مياه البحر الأحمر. وأنه نبع (مكبرت) كالنبع الذى فى حلوان. والفرق بين الاثنين أن هذا بارد. أما «حمام فرعون» فهو يخرج من بطن الجبل شديد الحرارة حتى لتلقى السمكة فى مائه الدافق فتنضج فى دقائق معدودات. وعلمت أيضاً أن كهفا يقوم إلى جانب النبع. إذا دخله الانسان فانه لا يطيق البقاء فيه أكثر من ربع ساعة لفرط حرارته وشدة مايعانى الانسان وهو بداخله من الوهج الذى يتفصد له الجسم عرقا. وقيل لى إن من دخل هذا الكهف وهو يشكو «الرطوبة» فانه لا يلبث أن يخرج منه كما ولدته أمه صحة وعافية. أما العين فانها وإن خرجت من ينبوعها حارة شديدة الحرارة إلا أنها تجرى على شاطىء البحر مسافة طويلة قبل أن تصب فيه. وأنها فى مجراها هذا تتفاوت حرارتها. فهى تبدأ حارة لا تطاق ثم تتناقص حرارتها كلما ابتعدت عن أصل النبع، حتى إذا جاءت ماء البحر وصلت وهى فاترة يطيقها كل إنسان. وقال لى من كان يحدثنى عنها: وإذا كانت مياه حلوان قد بلغت ما بلغت من الشهرة العالمية وهى باردة يرفعون حرارتها بأنابيب البخار، فلك أن تصور لنفسك مبلغ ما تمتاز به هذه العين وهى تخرج من بطن الأرض حارة حرارة طبيعية لم تتدخل فيها يد الانسان. وناهيك بحمام من مائها تعقبه خلوة قصيرة فى ذلك الكهف الذى يليها... إن الانسان ليدخلها ثم يخرج من الكهف بعدها كما يدخل المنديل القذر فى يد (الغسالة) ثم يخرج جافا ناصعا من عند (الكواء)!

***

وكان لى صاحب من ضباط البوليس أرتاح إلى صحبته فعرضت عليه رغبتى فى الاشتراك فى تلك الرحلة فتولى عنى مفاوضة الجماعة فى أمر انضمامنا إليهم. وعاد يبشرنى بأنهم يرحبون

بنا على شرط أن نكون ضيوفهم فى الحل والترحال؛ وتذللت بذلك آخر عقبة كنت أتوهم أنها تعترضنى فى سبيل تحقيق رغبتى لأنى لم تكن لى سيارة خاصة. وليست أمثال هذه الرحلة الطويلة مما يهون فيه الحصول على سيارة بالأجرة. وتحدد موعد القيام بعد يومين من إبرام هذا الاتفاق على أن نجعل قيامنا بعد الفجر بقليل فى اليوم المحدد. ولم يبق أمامى إلا أن أتولى إعداد توافه الأمور التى تركها لى مضيفى كالمناشف التى تلزم لتجفيف عرقى وأنا فى داخل الكهف. والغطاء الذى أتدثر به عند مبيتى معهم على شاطئ البحر فى العراء. على أنى أبيت إلا أن أستصحب معى سراً بعض المرفهات التى أعلم أنها لم تكن لتخطر لزملائى على بال. فدسستها فى حقيبتى بغية أن أفاجئهم بها هناك وسط الصخور والجبال. وكانت عندى (ترامس) ثلاثة يسع كل واحد منها لتراً من الماء. فملأتها جميعا بالماء المثلوج — ونسيت أن أقول إن الوقت كان فى بداية الصيف — وعطرتها بماء الزهر وأخفيتها فى الحقيبة كما أخفيت معها آلة تصوير لألتقط بها بعض المناظر التى تخلد ذكرى هذه الرحلة. وقد دلت كل الدلائل على أنها ستكون رحلة عامرة بالذكريات التى تستحق التخليد. ولست أحتاج أن أقول إن زملاءنا كانوا قد صارحونا بأنهم سيحملون عنا مئونة تزويدنا بالماء والطعام. فلما سألت عما إذا كانوا سيحملون هذا الزاد من الاسماعيلية أم من السويس قيل لى إن العرب الذين سنصادفهم فى الوديان خلال الجبال كلهم رعاة أغنام. ونستطيع أن نحصل منهم على ما نشاء من ضأن وماعز. كما أن البحر هناك مرعى بكر يزخر بألوان السمك. والوديان لا ينقطع منها الماء الجارى. ورجال البدو لا يلبثون أن يحتاطوا بنا ويتنافسون فى خدمتنا. فكنت أستمع لهذا الحديث وأرسل أحلامى على سجيتها لتتم بألوانها الساحرة بقية تلك الصورة الخلابة التى لبثت يومين كاملين وأنا أسعد بالتقلب بين أعطاف خيالاتها!

* * *

وأخيراً حل اليوم الموعود، وكنت على أتم أهبة للرحيل قبل بزوغ الشمس، وأقبلت السيارات تنادينى بأبواقها، فنزلت فاذا سرب طويل منها يضم الصحاب جميعاً، فاستقللناها قاصدين إلى السويس؛ والطريق ما بين الاسماعيلية والسويس طريق جميل ممهد أعدته فى السنوات الأخيرة شركة قنال السويس ليكون متمما للطريق القديم الذى يوصل ما بين الاسماعيلية وبور سعيد. وهذا الطريق يسير إلى جانب القناة ويتمتع السائر فيه بمناظر بحيرة التمساح والبحيرات المرة الكبرى والصغرى التى تمتد على يساره، بينما تقوم الحقول الخضراء على يمينه وهى حافلة بالأكواخ الصغيرة الساذجة، وبألوان شتى من المواشى والأغنام، وكلها دائبة فى رعى تلك المروج الناضرة البهيجة. ووصل الركب محطة «الكوبرى» حوالى الساعة السابعة صباحا. وهذه المحطة تقع فى شمال السويس، وعلى بعد ثمانية كيلومترات منها. وعندها تقع «المعدية» التى ينتقل عليها المسافر من شاطئ القنال الغربى، إلى شاطئه الشرقى — أو من شاطئه الأفريقى إلى قرى شاطئه الآسيوى كما يقولون — فاضطررنا إلى الوقوف هنا ريثما يقوم عامل «الجمرك» بتفتيش أمتعتنا. وقد عجبت لهذا العمل ونحن إنما ننتقل من أرض مصرية إلى أرض مصرية. فلما استفسرت عن السبب علمت أن المنطقة التى نريد أن ندخلها خاضعة لمصلحة الحدود. والنظام الادارى فى تلك المصلحة يكاد يكون مستقلا عن إدارة الحكومة المصرية. وأنه محظور على من يريد دخول الصحراء فى تلك الجهة أن يكون معه سلاح نارى تنفيذاً لأمر المصلحة الذى يقضى بعدم صيد الغزال مثلا فى تلك المنطقة. كما أنه من المحظور أيضاً أن يحمل المسافر معه آلة تصوير حتى لا يسجل بها مناظر ترى المصلحة أنه من الواجب المحافظة على سريتها. وكانت النتيجة الأولى لوقفتنا هذه فى محطة الكوبرى، أنى خسرت آلة تصويرى، لأنى اضطررت إلى تسليمها من تلقاء نفسى، وبذلك ضاعت على فرصة احدى المفاجآت التى كنت دبرتها للاخوان. على أن هذه لم تكن خسارتى الوحيدة. فقد بدا لبعضنا أن يتناول وجبة خفيفة فى ذلك المكان تكون بمثابة الفطور لمن فاته الافطار فى منزله. وكنت أنا من هؤلاء. فأردت بعد لقيمات ازدردتها أن آخذ جرعة من الماء فهممت بتناول واحد من (ترامسى) ولكن سبقتنى إليه يد أحد الزملاء الكرام يريد أن يبالغ فى الحفاوة بى فلا يدعنى أقوم بهذه الخدمة الهينة لنفسى فما راعنى الا أن أراه يملأ كوب الترموس من مائه المعطر المثلوج ثم يهزه فى يده هزات يريقه من بعدها على الأرض كما لو كنا

نستقى من (زير) بجوار سوق فى إحدى قرى الريف ، فهو يريد أن يكفل نظافة (الكوز) مما يكون قد علق به من الغبار ! وأردت أن أعوض ماشربته الأرض من مائى العزيز فاقتصدت فى الجرعة التى شربتها واكتفيت منها بمصتين لأنى كنت أقدر مانحن مقبلون عليه من الجفاف والجدب . ولكن حلا لبقية الصحب أن يستقوا فأدار الساقى عليهم من أكوابى ، ودخلت الصحراء بنصف ما كنت تزودت لها به من الماء . وكانت هذه خسارتى الثانية فى مستهل الطريق

وحملتنا (المعدية) بسياراتنا فنقلتنا إلى الشاطىء الشرقى . وبدأنا عقب ذلك رحلتنا الشاقة فى وسط الصحراء حيث لاشىء إلا الحصى والرمال فى طريق متشابهة لا أثر فيها لأى نوع من أنواع الحياة . ولبثنا نضرب فى تلك البيداء حتى أدركنا الظهر - ولكنا على كل حال كنا نسمر بمختلف الأحاديث - وكان الذين سبقونا إلى ارتياد هذا الطريق لا يضنون علينا بشرح ما يعرفونه من معالم ، وأحياناً أيضاً بشرح مالا يعرفون استجابة منهم لنداء تلك الغريزة العجيبة التى ركبت فى كل نفس والتى تجعل صاحبها يلتذ أن يتظاهر بالعلم أمام من لا يعلم !

وكانت سيارة الايطالى فى مقدمة الركب . وقد قبع الدليل البدوى على مقدمها ليلجأ إليه صاحبه كلما أعوزته المشورة فى أمر الطريق . وفى النهاية لاحت لنا أشجار « الطرفاء » التى تزين (وادى الغرَنْدَل) وهو واد واسع يكثر فيه النخيل ولا ينقطع منه الماء طول العام . وبدأنا نرى الناس من جديد بعد أن كنا نظن أننا انقطعنا عن العالم - ولكن يالهم من ناس ! . . . لقد كانوا أشباحاً فى أثمال . . . أجسام رقيقة مديدة ضمرها الجوع . وعيون فاترة غائرة أطفأها الفقر والجدب . كانوا يحيطون بنا ويعدون إلى جانبنا ويلاحقوننا كما كانت تفعل جنادب الوادى الذى يعيشون فيه . أما سياراتنا فكانت عند اجتيازها لهذا الوادى تجرى فوق مياهه . إذ لم يكن أمامنا طريق أخرى غير بطنه ، فكانت أشبه بالزوارق البخارية منها بالسيارات . ولقد عانينا كثيراً ونحن نجتاز هذه المرحلة من طريقنا لأن الماء كان يتسرب إلى داخل آلات السيارة كلما أدركنا مخاضة بعيدة الغور نوعا ما . وكان الويل للسيارة التى يصيبها ذلك ، لأن الركب ماكان ليقف لأمثال تلك الأحداث ، فكانت السيارة المتخلفة تقاسى كثيراً قبل أن تلحق بالقافلة وتمسك معها بطرف الطريق . وتكررت حوادث فقد الطريق ونحن بالوادى ، ذلك لأن الطرق فيه متشعبة فكان المتخلف عرضة لأن يتبع آثار عجلات غير عجلات سياراتنا كلما غابت عن نظره بقية القافلة . وكم وقفنا وأطلقنا أبواقنا ليهتدى على صوتها من نفتقده من الزملاء . وكم كررنا نحن راجعين فى مسلك وعر كنا قد تشهدنا عندما اجتزناه ، فلما فرغنا منه وجدنا أننا قد ضللنا الطريق .

* * *

وأخيراً خرجنا من هذا الوادى وعدنا إلى الصحراء من جديد ولكنها كانت فى هذه المرة صحراء نافرة صخرية يكتنفها جبل عظيم أبيض اللون ناصعه تجوس فى سفحه عربات صغيرة وتدب معها نمال بشرية تتراءى من بعيد كأنها بعض هوام الجبل أو زواحفه . وسألت فعلمت أن شركة إيطالية قد حصلت من الحكومة على امتياز لاستغلال هذا الجبل وأنها تحصل منه على نوع من الرخام النادر تصدر معظمه إلى باريس بالذات دون بلاد العالم لكثرة الحاجة إليه فى مبانيها الأنيقة الحديثة . وأن هذه الشركة قد أثرت من وراء هذا العمل ثراء طائلا . فأحببت أن نقف قليلا لنصل بعمال هذا الحجر ونتحدث اليهم فنسرى عن أنفسنا ونسرى عنهم . وفى أمثال تلك البقاع النائية يصدق قول القائل : وكل غريب للغريب نسيب !

وكانت حالة السيارات تقتضى هذه الوقفة أيضاً ، فإنها كانت قد شربت كل ما معنا من الماء وكانت فى حاجة أيضا إلى الماء . فترجلنا لنملأ صهاريجها ، واتجهت وبعض من معى إلى أولئك العمال فاذاهم جميعا من أهل الصعيد — تلك الطائفة النبيلة التى شيد أجدادها مجد الفراعنة وخلدوا آثارهم فى وادى الملوك وغير وادى الملوك ، وها هو ذا الخلف اليوم لا يجد من يستنجد بكتفه وذراعه غير الأجنبى فيلبى دعوة القوت وسط تلك الأصقاع السحيقة القاحلة يقضى عمره ويفنى حياته فى قطع الرخام وحمله ليجد هو فى آخر النهار ما يسد به رمقه . ولينعم حسان باريس بالرونق البهى والرواء الحسن . وليقف المقاول الايطالى بين الطرفين يستغل جهد المصرى وثراء الباريسى فى آن واحد .

وأردت أن أعرف من أين يحصل هؤلاء العمال على الزاد

والماء — ولعل الباعث الخفى لسؤالى كان حرصى على الاطمئنان على نفسى ومصيرها فى هذا القفر قبل أن يكون إشباع حب الاستطلاع فيها عن حالة هؤلاء المساكين — فقيل لى بأن باخرة تقدم من السويس كل شهر تقريباً فتحمل اليهم الزاد والماء الذى يكفيهم حتى موعد الزورة التالية ، فبدت على أنا وزملائى علائم الاشفاق والرثاء . ولكن جرنا الحديث إلى ذكر المنائر التى تقع على شاطىء البحر الأحمر والتى تضم كل واحدة منها ثلاثة من الموظفين المصريين فى حالة عزلة تامة عن العالم لمدة تسعة شهور ، إذ أن كل منارة من هذه المنائر يديرها أربعة من الموظفين يعمل كل واحد منهم تسعة شهور متتالية فى العام ويحصل على أجازة سنوية تستغرق الثلاثة شهور الأخرى . ولذلك فان ثلاثة منهم فقط يجتمعون فى العمل ويكون الرابع فى إجازته ، حتى إذا عاد هو قام من يكون عليه الدور وهكذا . وأن الواحد من هؤلاء الموظفين متى استلم عمله فى فنارة فانه ينقطع عن العالم وأخباره حتى يحل موعد وصول الباخرة التى تأتيهم بالطعام والماء مرة فى كل شهر . وهم من خلال هذا الشهر لا يقرأون الصحف ولا سبيل لهم إلى معرفة ما يكون قد مر على العالم من أحداث ، وما يكون قد طرأ عليه من حروب . وعجبت من شأن الحكومة مع هؤلاء الناس ومن شأنهم هم مع أنفسهم . فاننا أصبحنا اليوم نسمع الراديو فى السيارات الخاصة وهي تسير وسط الطرقات العامرة الزاخرة ، ثم ها نحن أولاء نسمع من أمثال هذه المنائر التى تترك بغير جهاز ولا صفير من هذه الأجهزة الكفيلة بأن تنقل أهلها من عزلتهم فتضعهم فى وسط العمران والحياة

* * *

كان بيننا وبين (حمام فرعون) ونحن فى ذلك المحجر بضع كيلو مترات قد لا تزيد على خمسة أو ستة ، ولكن ما كابدناه فى قطع هذه المرحلة القصيرة فاق كل ما لاقيناه فى طول الرحلة منذ بدايتها ، ذلك بأن الطريق كان قد انقطع عند المحجر ، وأصبح علينا بعد ذلك أن نسير فى أرض بكر لا تطرقها السيارات إلا كلما حلا لأمثالنا أن يزور ذلك المكان ، وهو نادر قليل ، وكانت طبيعة الأرض فى تلك الجهة جامحة نافرة ، فبيناهى صلبة فى بعض نواحيها إذا هى رخوة تغوص القدم فى رمالها فى نواحيها الأخرى

وكان فى انتقال السيارة من الصلب إلى الرخو ثم من الرخو إلى الصلب ما فيه من إجهاد للسائق وللراكب وللآلات نفسها ، وذلك لما تستدعيه طبيعة كل ناحية من تغيير درجات السرعة وتحريك رافعات السيارة واحدة بعد أخرى بما يناسب حالة الطريق وقد حدث اننا خسرنا فعلا إحدى سياراتنا فقد انكسرت بعض آلاتها فى هذه التنقلات السريعة المفاجئة ، واضطررنا إلى التخلى عنها وسط الطريق بعد أن توزعت حمولتها على بقية السيارات فزادت فى عسر حركتها وتعريضها هى الأخرى للتلف ، وليس يفوتنى هنا أن أقول إن هذه السيارة بالذات كانت سيارة تاجر الاسماعيلية الذى لم يكن من سبب لأشراكه فى هذه الرحلة غير سيارته ، ولكن هكذا قدر الله فى لوحه أن يأتى أجل هذه السيارة فى تلك البقعة الموحشة . وصدق الله العظيم و (ما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت) وقديماً قيل :

إذا ما حمام المرء كان ببلدة دعته اليها حاجة فيطير

وقبل العصر بقليل ألقت القافلة عصاها فى سفح جبل عال كان يواجهنا ، وقيل لنا انزلوا : فهذا هو « حمام فرعون »

* * *

وثبتُ من سيارتى فرحا وقد نسيت أمام بلوغ الهدف كل مالاقيته خلال الرحلة من مشقة . ولم أنتظر حتى يتقدمنى من له علم بالمكان . لأنى لم أكن رأيت فى حياتى قط عينا حارة ـ ولكنى كما هو الحال دائماً فى أمثال هذه الشئون كنت قد صورتها لنفسى بعين خيالى . وكنت شديد الشغف الآن بأن أقابل بين الحقيقة وبين الخيال . فما كان أشد الفرق بين الصورتين !

كنت أتصور النبع على صورة (الفسقية) ينبثق من وسطها خرطوم عال من الماء له رشاش من حوله ثم يتجمع الماء فى حوض حول العين ثم لا يلبث أن يفيض من الحوض إلى ذلك المجرى الطويل الذى حدثونا عنه . وكنت أتخيل هذا المجرى فى صورة قناة جميلة وسط صخور صلدة ينساب الماء فيها رائقا صافيا كتلك القناة الجميلة البيضاء التى ما تزال آثارها باقية فى « وادى حوف » بحلوان والتى كنا نتناول فيها غداءنا كلما رحلنا إلى تلك الجهة . فادرت عينى بسرعة فيما يحيط بى أبحث عن تلك الفسقية أو عن هذه القناة فلم أجد لإحداهما أثرا ، فخاب ظنى لأول

وهلة وأحسست بقلبي يتراجع قليلا فى صدرى شأن من يفاجأ بأمر لم يكن يتوقعه . ولكن سرعان ما استغرق بصرى ذلك الجبل العظيم الذى كنا نقف فى كنفه . فصوبت عينى فيه وصعدتها فأخذتنى عظمته . ولمحت فى صفحته ثغرة سوداء قريبة من سطح الأرض ، فأدركت أنها لابد أن تكون مدخل الكهف الموعود . وكان هذا الجبل يقوم على شاطىء البحر ليس بينه وبين الماء فى البقعة التى وقفنا فيها أكثر من خمسين مترا ، ثم هو يمتد محاذيا للشاطىء مسافة مائتى متر أو ثلثمائة متر ، وبعد ذلك يتصل بالماء رأساً فيرتطم موج البحر بقدميه ويتحطم على صخوره السوداء . ولفت نظرى فى ذلك المثلث الرملى الضيق الذى كنا نقف على قاعدته أن قناة ضحلة تجرى وسطه فتتبعتها ببصرى مسرعا فرأيتها تبدأ عند قاعدة الجبل ولكن لم أتبين من أين ينبثق ماؤها . فدلفت إليها حتى جئت المكان الذى ينبعث منه الماء فاذا هو ثلمة ضيقة بين صخرين يسيل منها الماء كما يسيل من صنبور متوسط الحجم فيجرى على الصخور المجاورة حتى تتسلمه رمال الساحل فتبلع منه ما تبلعه وتترك الباقى ينداح على صدرها حتى يصب فى البحر . وكانت رائحة الكبريت ساطعة تملأ الجو ، ولكن الماء كان يجرى كالبلور المذاب لا يعلوه بخار ولا يبدو عليه أنه حار . فأغرانى ذلك بأن أمد إليه أصبعى ولكنى ما كدت أفعل حتى سحبتها صارخاً كأنما اندق فيها مسمار . فأثلجت هذه اللسعة صدرى . ومنيت نفسى بالحمام الساخن الذى قطعت من أجله كل تلك القفار . فلست أعرف فى متع هذه الحياة ما هو أحب إلى نفسى من الحمام الساخن !

* * *

وكان إخوانى قد أدركونى وحف بعضهم بالنبع وانطلق بعضهم يساير القناة . أما الايطالى فإنه اشتغل بنصب الخيام

وشاءت المصادفات أن يكون الهواء فى ذلك اليوم قوياً ثقيلا فكان يسفى علينا التراب ونحن لا نجد ما نحتمى فيه حتى قامت خيام الايطالى فآوينا اليها وقد نال منا الجوع ، ونشر الخادم بين يدينا علبه ولفائفه وأدار علينا الخبز فالتهمناه بما أصابت أيدينا من جبن وزيتون وقديد وما إلى ذلك مما كان قد أعد لتتبيل أغنام الرعاة المنتظرة وسمك الصيادين الموعود ، فأبت علينا المقادير إلا أن نأ كله هو متبلا بالتراب ومحشواً بصغار الحصاء ، ومع ذلك فقد كنا نتخاطفه ونتنافس فى التطويح بما نصيبه منه إلى أفواهنا قيل أن ننفخ فيه وننذرو عنه ماعلق به من الرمال ، فيا سبحان الله ! أهكذا يحلو المر أحياناً فى هذه الحياة ! وماذا بقى لنا من الحقائق المطلقة فى دنيانا وكل شىء فيها اعتبارى كما نرى ؟ إلا أن الحسن إنما يكون حسناً فى ظل رضا النفس ، والقبيح إنما يقبح بزوال هذه الحالة عن النفس ! والسعادة مهما اختلف الناس فى أسبابها فهى من الكثير الغالب من صنع أيدينا وفى القليل النادر من صنع المقادير .

* * *

ولم نهجع عقب الطعام بل انتشرنا فى المكان نرتاده ونتسلق الجبل وندخل الغار بأطراف رءوسنا ثم نخرجها سراعاً لكثرة ما ألقى فى روعنا من أنه شديد الحرارة يذيب نخاع الرءوس . وقضينا على ذلك ساعة وبعض ساعة حتى أوشك النهار أن ينقضى فتاهبنا لأخذ الحمام المرتجى ، وانصرف كل واحد منا إلى صخرة توارى خلفها فخلع ملابسه . وارتدى قميص البحر . ولم تكن إلا هنيهة حتى استحال المكان إلى « بلاج » أنيق صغير بأولئك الفراعنة الصغار الذين جاءوا من أقصى الأرض ليحققوا للمكان اسمه ويؤيدوا له لقبه . وكان الأعرابى الذى مع الايطالى قد احتمل فأساً وقصد إلى أوسع مكان فى القناة فعمقه وأبعد غوره كما يتسع لأجسامنا ويصلح للاضطجاع . فنزلناه واحداً بعد واحد وساعدنا ذلك على رفع مستوى الماء قليلا فما زلنا نتقلب فيه ونتلبط . وهواء المساء البارد يصفع أجسادنا الحارة . ونحن نصر على أن نوهم أنفسنا باننا نأخذ حماماً ساخناً حتى أدركنا أن إصرارنا سيكون وخيم العاقبة اذا نحن تمادينا فى تحدى الطبيعة إلى أبعد من هذا الحد ، فخرجنا نتواثب من حفرتنا كجماعة الضفدع دهمها داهم وهى ترتل فى مخابئها أناشيد المساء !

ولما نزل بنا الليل كان الهواء الثائر قد سكن ، والتراب السافى قد استقر ، ولاحت النجوم فى السماء زاهية زاهرة . وأشهد أنى لم أر السماء طول حياتى كما رأيتها فى تلك الليلة . فلقد اعتدنا أن نراها ونحن فى المدن من خلال المبانى الضاربة فى الفضاء ، ومن خلال النوافذ الضيقة ، فكنا لا نرى إلا قطعاً منها تذهب التجزئة

فيها بجمال المجموع . أما فى تلك الليلة فقد راقنا أن تنام فى العراء فبسطنا فراشنا فوق الرمل وألقينا عليه وسائدنا ثم انطرحنا على ظهرنا واتجهنا بأبصارنا فى السماء فراعتنا ، وبدت لنا النجوم كما لو كنا لم نرها قط قبل تلك اللحظة . وإنى لأذكر الآن كيف أننا جميعاً أصابنا وجوم مشترك أمام عظمة هذا المشهد حتى لقد بقينا فترة لم ينبس فيها واحد منا بحرف . فلما نطق أول متكلم فينا وتحدث بماراعه من منظر السماء اندفعنا جميعاً نكرر معنى واحداً فى عبارات مختلفة ، وأدركنا أننا فى سكوننا كنا تحت تأثير واحد ، وأن أحداً منا لم يستطع أن يفلت من جاذبيته !

* * *

وفى غداة اليوم التالى تنفسنا مع الصبح جميعاً . ومنا من كانت قد انقضت عليه أعوام وأعوام وهو لا يرى الشمس كل صبح إلا بعد أن ترقى حدود الأفق بزمان طويل . وهببنا من مضاجعنا خفافاً تفيض حركاتنا بالقوة والنشاط ، وكانت مفاجأة الصباح التى أعدتها لنا طبيعة المكان أننا أردنا أن نحلق لحانا فامتنعت عن الصابون مياه النبع ؛ وعبثاً حاولنا إحداث الرغوة المطلوبة على الرغم من إسرافنا فى الدعك والفرك ؛ ولم نشأ أن نضحى ببقية مائنا العذب فى شؤون زينتنا ، فطال ركوعنا على حافة القناة حيث اجتمعنا فى شبه (صالون) خشن حقير !

وكنا قد أحسسنا فى المساء أن ذخيرتنا من الماء كادت أن تنفد ، فاحتلنا فى الحصول على مدد فلم نجد إلا صفيحتين فارغتين من صفائح البنزين فبعثنا بهما مع خادم ليملأهما من ماء الوادى فعاد بهما إلينا ونحن نتناول طعام الفطور ، فكرعنا من مائهما ما كنا فى حاجة إليه ، فاذا هو فى مذاقه أشد نكراً من ماء النبع فهذا فيه طعم الكبريت . أما ذاك فانه عبق برائحة البنزين والبترول .

وكنت أزمع العودة مع بعض الصحاب فى ظهر ذلك اليوم فرأينا أن نقضى الساعة التى بقيت لنا فى جوف الكهف حتى لا يكون قد فاتنا شىء من « متع » المكان قبل أن نبرحه . فعدنا إلى قمصان البحر فارتديناها ونشرنا شيئاً من الفراش فى أرض الغار ثم دخلنا فرقدنا فوقها ولكنا لم نلبث أن اعتدنا حرارة المكان الذى استلقينا فيه ، فأوغلنا قليلا فوجدنا فارقاً محسوساً فى الحرارة فسرنا ذلك ، وبقينا فيه أيضاً حتى ألفناه ثم أوغلنا ثانية ، وهكذا حتى أصبحنا فى قرار الكهف حيث الظلام الشامل . فما كان أروع منظرنا ونحن نزحف فى نواحى المكان كالخفافيش والعالم من خلفنا على باب الكهف ساطع بهيج ! وكنا قد احتملنا معنا مناشفنا فلم تكن ترى فينا إلا شبحا يستوى قاعدا فيأخذ فى تدليك جسمه بمناشفه حتى يجفف عرقه فلا يكاد يرقد حتى يقوم إلى جانبه شبح آخر يظل يهزج ويحك ذراعه بذراعه فلا ينتهى حتى يسلم هذه المهمة لسواه ، وهكذا حتى أحسسنا بحلوقنا آخر الأمر تكاد تجف من فرط ما عرقنا وأفرزنا من ماء جسومنا فعولنا على الانسحاب . وكان حتما علينا أن ننسحب متدرجين كما أوغلنا متدرجين حتى لا تقتلنا الطفرة أو يؤذينا الانتقال السريع . فقضينا فى هذا الانسحاب زمنا ليس بالقليل ولم نستطع أن نركب سياراتنا إلا بعد أن انتصف النهار . ونسيت أن أقول إننا أتينا بعد خروجنا على ماء الصفيحتين فشربناه وظللنا من بعده يومين ونحن نتجشأ بنزينا قويا يكاد ريحه يضىء ولو لم تمسسه نار !

* * *

انقضت بعد عودتنا أيام رأيت فى خلالها بعض الصحاب فكان حديثهم ترديدا لما لاقينا من وعثاء الطريق ، وما قاسينا من سعار الكهف . ثم قابلت صاحبنا الايطالى فكان حديثه أنه يفكر فى الحصول من الحكومة على امتياز لاستغلال النبع واقامة فندق صغير بجواره وتهيئة بواخر خفيفة تصل بينه وبين السويس حتى تنقلب الرحلة إلى متعة ينعم بها المستشفى بدل أن تبقى كما هى الآن مشقة ينوء بها الرياضى . فهتف فى نفسى هاتف : « يعيش الدونشى ! » ، وقلت لمحدثى : لمثل هذا فليعمل العاملون .

حسين جلال

الألفاظ العربية

الاسلامية ، المولدة ، المعربة
العربية ، العبرانية ، السريانية
استعمال لفظة فى محلها : (سد بوزك)

للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبى

الألفاظ فى العربية أقسام :

قسم عربى بحت ، وهو الذى وضعته اللغة فى (الجزيرة) أو جاء من عند غيرها وخالط ألفاظها فعد كأنه منها ، وهو أعجمى تعرب ، والعربية عربية قوية ، فكان مثل « الهرمزان الذى أسلم وبدّل ثيابه ، وتسمى بعرفطة . . » كما جاء فى (الطبقات) لابن سعد .

وقسم اسلامى أظهره الاسلام ، وما كان فى الجاهلية يعرف ، أو كان له معنى فيها غير الذى استجد ، وهو مثل : المؤمن ، المسلم الكافر ، المنافق ، المخضرم [1] ، الجاهلية [2] الدجاجلة [3] الفاسق ؛ قال ابن الاعرابى : « لم يسمع قط فى كلام الجاهلية ولا فى شعرهم (فاسق) قال : وهذا عجيب وهو كلام عربى ، ولم يأت فى شعر جاهلى . وفى الصحاح نحوه » .

وقسم مولّد محدَث ، ولد فى غير (الجزيرة) مثل الطنز (أعنى السخرية) والكابوس الذى يقع على النائم ـ وفى هذا الزمان يقع على النائم واليقظان ـ والمطرمذ وهو الكذاب الذى له كلام وليس له فعل ، وما أكثر الطرمذة [4] فى الناس ! والفشار ـ وهو الهذيان ـ وجُلّ الناس أوكلهم ـ كما يقول بعضهم ـ فشارون . .

(١) فى اللسان قال ابن خالويه : مخضرم خلط ومنه المخضرم الذى أدرك الجاهلية والاسلام. وأما من قال مخضرم بفتح الراء فتأويله عنده أنه قطع عن الكفر الى الاسلام

(٢) فى (كتاب ليس) لابن خالويه : ان لفظ الجاهلية اسم حدث فى الاسلام للزمن الذى كان قبل البعثة .

(٣) فى (كتاب ليس) : لم يسمع جمع الدجال من أحد إلا من مالك بن أنس فقيه المدينة فانه قال : هؤلاء الدجاجلة

(٤) فى (أمالى القالى) : الطرمذة لفظة عربية . وفى (اللسان) : الطرمذة ليس من كلام أهل البادية (الجوهرى)

ومن المولد الطرش والتشويش والمخرقة والقازوزة [1] والبحران [2] ومنه [3] (ستى) فى قولهم : ياروحى ، ياستى ! بمعنى ياسيدتى

وقسم معرب وتعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها تقول : عربته العرب وأعربته

فى (الصحاح) : المهندز الذى يقدر مجارى القنى والأبنية ، معرب . وصيروا زايه سينا فقالوا : مهندس لأنه ليس فى كلام العرب زاى قبلها دال

ومن المعرب (قالون) قال الثعالبى فى فقه اللغة : « سأل على شريحا مسئلة فأجابه ؛ فقال له : قالون : أى أصبت بالرومية » وفى (الفائق) للزمخشرى « أو هذا جواب جيد صالح . ومنه حديث ابن عمر (رضى الله عنهما) انه عشق جارية له (رومية) وكان يجد بها وجداً شديداً ، فوقعت يوماً عن بغلة كانت عليها ، فجعل يمسح التراب عن وجهها ويفديها ، وكانت تقول له : أنت قالون (أى رجل صالح) فهربت منه بعد ذلك فقال :

قد كنت أحسبنى (قالون) فانطلقت
فاليوم أعلم أنى غير (قالون)

ومن المعرب الشُشقلة وهى ان تزن الدينار بازاء الدينار لتنظر أيهما أثقل ، قيل ليونس : بم تعرف الشعر الجيد ؟ قال : بالشقشلة

ومنه (البوس) بمعنى التقبيل . ومن المعرب (خوداى) أى واجب الوجود وهو الله . وفى كتاب (المدهش) لابن الجوزى : « وقف أعجمى عند الكعبة والناس يدعون وهو ساكت ، ثم أخذ بلحيته فرفعها وقال : ياخوداى ، شيخ كبير !!! »

ومن المعرب (الخز والديباج) وكون هذين معربين ـ شىء محقق [4]

ومنه الفالوذج واللوزينج والجوزينج ومن يقدر ان يمارى فى تعريب ذلك ؟ ؟

(١) فى (اللسان) : القازوزة مشربة دون القرقارة ، أعجمية معربة

(٢) البحران : التغير الذى يحدث للعليل دفعة فى الامراض الحادة

(٣) فى المزهر : كل لفظ كان عربى الاصل ثم غيرته العامة بهمز أو تركه أو تسكين أو تحريك أو نحو ذلك مولد .

(٤) فى (أدب الكتاب) للصولى و انظر فارسى عربيا بين يدى يحيى بن خالد

ومنه (الدهدر) أى الباطل وهو تعريب (دَه دُلِه) أى صاحب عشرة قلوب ، والمراد به الرجل المتقلب . (قلت) : والرجل المتقلب ذو مئة قلب ومئة وجه

ومنه البشم : التخمة ، ولا ريب فى أنها معربة فما يجيء البشم الا من الافراط فى الاكل ، ومتى كان الشبع فى الجاهلية حتى يكون البشم ؟ !

ومنه أيضا : (أيضا) فارسيتها أيدى كما يقول كتاب الألفاظ الفارسية المعربة

ومن المعرب : (شاقرد) أو شاجرد ومعناه متعلم ، تلميذ تعريب شاكرد قال الأعشى :

وما كنت (شاجردا) ولكن حسبتني ـ
إذا (مسحل) سدّى لى القول ـ أنطق(١)

وقال موسى بن عبد الله البختكان :

قد كنت شاكردى فيما مضى فصرت أستاذى ولا ترضى

ومن المعرب : التوت أو التوث وهو الفرصاد فى العربية الأولى . قال محبوب بن أبى العشنط :

لروضة من رياض الحزْن أو طرف
من القُرَيَّة جرد غير محروث
للنوْر فيه اذا مج الندى أرَج
يشفى الصداع وينقى كل ممغوث (٢)
أحلى وأشهى لعينى ان مررت به
من كرخ بغداد ذى الرمان والتوث

وفى تذكرة الشيخ تاج الدين بن مكتوم بخطه : « قال نصر ابن محمد بن أبى الفنون فى كتاب أوزان الثلاثى : سين العربية شين فى العبرية ، فالسلام شلام ، واللسان لشان ، والاسم اشم »

البرمكي فقال الفارسى : ما احتجنا اليكم قط فى عمل ولا تسمية ، وقد ملكتم فما استغنيتم عنا فى أعمالكم ولا لغتكم حتى أن طبيخكم وأشربتكم ودواويكم وما فيها على ماسميناه ، ما غيرتموه . فسكت عنه العربى . فقال له يحيى بن خالد : قل له : اصبر لنا ، نملك كما ملكتم ألف سنة بعد ألف سنة كانت قبلها لا نحتاج إليكم ولا إلى شيء كان لكم

(١) مسحل : تابعة الاعشى (شيطانه) وفى الاساس : ركب فلان مسحله اذا مضى على عزمه . وتقول : اذا ركب فلان مسحله أعجز الأعشى ومسحله . أى اذا مضى فى قريضه .

(٢) ممغوث : محموم

وقول ابن أبى الفنون يذكرنا بكلام لابن حزم فى كتابه (الإحكام فى أصول الأحكام) وهو :

« ان الذى وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية التى هى لغة مضر وربيعة لا لغة حمير ـ واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث فيها جرش كالذى يحدث من الأندلسى اذا رام نغمة أهل القيروان ، ومن القيروانى اذا رام لغة أهل الأندلس ، ومن الخراسانى اذا رام نغمتهما

ونحن نجد من سمع لغة أهل (فحص البلوط) وهى على ليلة واحدة من قرطبة كاد يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة . وهكذا فى كثير من البلاد فانه بمجاورة أهل البلدة لأمة أخرى تتبدل لغتها تبدلا لا يخفى على من تأمله ، ونحن نجد العامة قد بدلت الألفاظ فى اللغة العربية تبديلا ، وهو فى البعد عن أصل تلك الكلمة كلغة أخرى ، ولا فرق ، فنجدهم يقولون فى العنب : (العينب) وفى السوط (أسطوط) وفى ثلاثة دنانير (ثلثدا) . وإذا تعرب البربرى فأراد أن يقول الشجرة قال (السجرة) ؛ وإذا تعرب الجليقى أبدل من العين والحاء هاء فيقول (مهمداً) إذا أراد أن يقول (محمداً) ومثل هذا كثير . فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية (١) أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ماذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم ، وإنها لغة واحدة فى الأصل

* * *

ومن الألفاظ المولدة فى العربية لفظة (البوز) التى استعملها الجمهور فى مدينة يافا من أعمال فلسطين منذ أربع سنين حينما كان الوطنيون فى دار القضاء (المحكمة) يحاكمون ، فقد قال عامل عربى من عمال الشحنة أو الشرطة ـ البوليس أو البلوص كما يقال فى بعض الجهات ـ فانه قال كلمة منكرة فاحشة أنكرها الجمع العربى حتى ان النيابة وهي انكليزية أنكرتها وقسرته على أن يرجعها فرجعها ؛ فلما قالها صاح الناس هناك : (سد بوزك) وقد ظن بعضهم أن هذه اللفظة عامية والصحيح أنها معربة (٢)

(١) وفى (طبقات الامم) للقاضى صاعد الأندلسي : « تفرعت اللغة العبرانية والعربية من اللغة السريانية »

(٢) فى (كتاب) الالفاظ الفارسية المعربة : « البوز بكلام العامة معرب عن بوز وهو يطلق على فم الحيوانات (الكلب)
وفى (شفاء الغليل) البوز الفم ويطلقونها فى الاكثر على فم الكلب »

أو مولدة وهى — إن لم تكن نوحية — ألفية عمرها ألف سنة ، وقد استعملها كبار الأدباء ، وهذه حكاية أوردها ياقوت فى كتاب (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) وقد جاءت فيها اللفظة المذكورة :

« حدث غرس النعمة محمد بن هلال قال : حضر يوماً (ابن جنى) — الامام اللغوى — فى الديوان يتحدث مع أبى اسحق الصابى ، وكان له عادة فى حديثه بأن يميل شفتيه ويشير بيديه ، فبقى أبو الحسين القمى شاخصاً ببصره يتعجب منه فقال له ابن جنى : ما بك يا أبا الحسين ، تحدق إلى النظر وتكثر منى التعجب ؟

قال : شىء ظريف !

قال : ماهو ؟

قال : شبهت مولاى الشيخ وهو يتحدث ويقول ببوزه كذا وبيده كذا بقرد رأيته اليوم عند صعودى إلى دار المملكة وهو على شاطىء دجلة يفعل مثلما يفعل مولاى الشيخ

فامتعض أبو الفتح بن جنى وقال : ماهذا القول يا أبا الحسين (أعزك الله) ؟ ومتى رأيتنى أمزح فتمزح معى ، أو أمجن فتمجن بى ؟

فلما رآه أبو الحسين قد غضب قال : المعذرة أيها الشيخ إليك وإلى الله (تعالى) أن أشبهك بالقرد ، وإنما شبهت القرد بك

فضحك ابن جنى وقال : ما أحسن ما اعتذرت ! وعلم أنها نادرة تشيع فكان يتحدث هو بها دائما »

* * *

ويستعمل بعضهم (البوز) لبرطيل[1] الكلب . فيقول : بوز فلان مثل بوز الكلب

وإذا كانت اللغة خصت بها هذا الحيوان فيكون استعمالها لنوع من بنى الإنسان مجازياً ، والمجاز باب واسع . . .

فقول الجمهور لذلك (الشرطى) حين خرج الذى خرج من فيه ، من فمه ، من بوزه : (سد بوزك) — استعمال من جهة اللغة فى محله . . .

محمد اسعاف النشاشيبى

(١) البرطيل : خطم الفلحس وهو الكلب

الروايات الكنسية والنصرانية

وقيمتها كمصادر للتاريخ الاسلامى

للاستاذ محمد عبد الله عنان

وفقت دار الآثار المصرية أخيراً للحصول على نسخة مصورة من أثر كنسى هام له قيمته فى تاريخ مصر الاسلامية ، هو مجموعة سير بطاركة الكنيسة القبطية منذ نشأتها حتى منتصف القرن السابع الهجرى . وقد كان للمجتمع القبطى دائماً شأن فى تاريخ مصر الاسلامية ، وكان للكنيسة القبطية دائماً علائقها الرسمية مع الحكومات الاسلامية ، ومع ذلك فان الرواية الاسلامية لم تفسح مجالا كبيرا لبحث هذه العلائق وتمحيصها ، ولم تعن بالأخص بان تشرح لنا وجهة النظر الكنسية فى مختلف العصور شرحاً وافياً ، ولم تفطن دائماً الى الاستفادة من الآثار والمصادر النصرانية فى تفهم أحوال المجتمع النصرانى وزعامته الروحية .

ومن ثم كانت أهمية الآثار النصرانية التى تعنى بعصور من تواريخ الأمم الاسلامية ، فى هذه الآثار نستطيع أن نفهم بوضوح موقف الكنيسة وموقف أوليائها حسبما يصوره لنا كتابها ودعاتها ، ونستطيع بمراجعة أقوالهم وتعليقاتهم أن نقف على كثير من الحقائق التى لم تعن الرواية الاسلامية بشرحها واستيعابها ، وكتاب سير البطاركة الذى أشرنا إليه من تلك الآثار التى تلقى ضوءا على موقف الكنيسة القبطية ، وموقف الشعب القبطي وأحواله فى مصر خلال العصور الوسطي ، وهى ناحية لها بلا ريب قيمتها وأهميتها فى تاريخنا القومى ، وتنقسم النسخة المصورة التى حصلت عليها دار الكتب من الأثر الذى أشرنا اليه والتى نقلتها عن مخطوط باريس إلى قسمين : أولهما كتاب سير الآباء البطاركة الذى وضعه الأنبا سويرس بن المقفع أسقف الأشمونين فى عهد المعز لدين الله الفاطمى فى تاريخ بطاركة الاسكندرية ، وهذا الأثر معروف ومتداول لأنه طبع منذ أكثر من ثلاثين عاما بعناية الآباء اليسوعيين ، وقد عرفته الرواية الاسلامية منذ عصور وانتفعت به أحيانا فيما نقلته من أنباء الكنيسة والبطاركة . وقد كان الأسقف سويرس من أكابر الأحبار والمفكرين أيام الدولة الأخشيدية وأيام المعز لدين الله ، وكان أسقفا لمدينة الاشمونين التى كانت من مدائن

الصعيد الزاهرة يومئذ ، وتشيد الرواية الكنسية بعلمه وأدبه ومكانته الروحية والاجتماعية ، وتحدثنا عن صلاته بالمعز لدين الله ومحاوراته الدينية والكلامية معه ، وتعدد لنا كتبه وآثاره الأدبية والتاريخية . ويتناول سويرس فى كتابه سير بطاركة الاسكندرية منذ القديس مرقص منشىء هذا الكرسى حتى البطريرك افراهام بن زرعة السريانى الذى رسم بطريركا لليعاقبة سنة ٣٦٥ ﻫ (٩٧٥ م) فى أوائل عصر العزيز بالله . وقد ورد فى مقدمة هذا القسم إشارة إلى طريقة وضع هذا الأثر وتأليفه نصها : « هذه السيرة جمعها واهتم بها من كل مكان الأب الجليل انبا سويرس بن المقفع أسقف مدينة الاشمونين ، ذكر أنه جمعها من دير أبو مقار ودير نهيا ، وغيرهما من الديارات وما وجده فى أيدى النصارى منها أجزاء مفرقة أنفق فيها أعواما طويلة حتى بلغ عمره الثمانين » (١) .

على ان هذا القسم المتداول ليس هو المقصود بالذات فى هذا التعريف والتعليق ، وانما نقصد بالاخص إلى التعريف بالقسم الثانى من الأثر الكنسى ، وهو الذى يشغل المجلدين الثالث والرابع من مخطوط باريس الذى نقلت عنه نسخة دار الكتب المصورة ، فهذا القسم الذى لم ير الضياء بعد يحتوى على سير البطاركة المصريين منذ أوائل الدولة الفاطمية إلى سنة ٦٣٥ ﻫ أعنى إلى نهاية عصر الملك الكامل . وقد نسب هذا الأثر بجملته فى فهرس مكتبة باريس الوطنية إلى سويرس بن المقفع ، وهى نسبة ظاهرة الخطأ لأن سويرس توفى فى أوائل عهد العزيز حوالى سنة ٣٧٠ ﻫ ، فليس من المعقول إذن أن ينسب إليه ما تضمنه الأثر الكنسى بعد هذا التاريخ : وظهر أثر هذه النسبة الخاطئة جليا فيما كتبه العلامة المستشرق سلفستر دى ساسى ، عن الحاكم بامر الله فى كتابه عن الدروز ، إذ ينقل كثيرا مما ورد فى الاثر الكنسى عن عصر الظاهر ولد الحاكم وعن عصر المستنصر بالله ولد الظاهر (٢) ، منسوبا إلى سويرس بن المقفع .

وقد أتيحت لنا فرصة لبحث هذا الأثر الكنسى واستقصاء مصادره ومساق واضعيه ، فانتهينا إلى هذه الحقيقة وهى أن الجزأين الثالث والرابع من المخطوط ليس لهما علاقة بمؤلف أسقف الأشمونين ، بل هما أثر مستقل بذاته ، ذيل بهما الأثر الأصلى لأنهما فى نفس موضوعه وهو استئناف سير البطاركة من حيث وقف سويرس ؛ ويسمى هذا الأثر الملحق باسم آخر هو « سير البيعة المقدسة » ، ولم يقم بتأليفه أو وضعه مؤلف واحد بل تعاقب فى وضعه وكتابته عدة من الأحبار المتعاقبين ، فتولى كتابة القسم الخاص بعصرى العزيز والحاكم مثلا قس معاصر يدعى الأب ميخائيل « كاتب السنوديقا بكرسى مارمرقص » (البطريركية) كما يقول لنا ذلك خلال الكتاب ؛ وكتب سيرة الأنبا فيلاتاوس البطريرك الثالث والستين وهو معاصر العزيز ثم الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين وهو معاصر الحاكم بأمر الله ، وأورد الكتاب خلال حديثه كثيراً من الأقوال والروايات الهامة عن الحاكم وحياته العامة والخاصة ، وعن حوادث العصر المدهشة . وكتب سير البيعة المقدسة أيام الظاهر والمستنصر قس يدعي « موهوب بن منصور بن مفرج الاسكندرانى الشماس » ويقول لنا « إنه جمع سيرهم وكتبها واستخرجها من دير أبو مقار بوادى هبيب وذلك سنة ٨٠٦ للشهداء الموافقة لسنة ٤٨٠ ﻫ » . وكتب فى أيام المستنصر وبعده قس آخر يدعى يوحنا ابن صاعد بن يحيى المعروف بالقلزمى وهكذا حتى أواخر الدولة الفاطمية ؛ وهنا يقول لنا كاتب هذا القسم إنه سيتم سير الآباء ، وإنه بدأ بما شاهده فى عصره وخصوصا أيام زوال الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، وهنا يميل الكاتب إلى التبسط فى سرد أحداث العصر ، ولا يتقيد بالناحية الكنسية بل يفيض فى سرد الحوادث جملة ؛ ويتحدث عن السلطنة وعن سيرها وأعمالها ، ويسير فى ذلك على ترتيب السنين القبطية أو سنى الشهداء ، حتى سنة ٦٣٥ ﻫ ، أو نحو سنة ٩٥٠ للشهداء ، حتى نهاية عصر الملك الكامل ناصر الدين

ولقد نوهنا فى بداية هذا الفصل بأهمية أمثال هذه الآثار الكنسية فى شرح موقف الكنيسة من الخلافة أو السلطنة ، وشرح وجهات نظرها فيما يتصل بها من الحوادث والشؤون ، وتبدو أهمية الرواية الكنسية بنوع خاص فى العصور التي تضطرم فيها فورات اضطهاد ضد الكنيسة والمجتمع النصرانى أو تتجه السياسة الاسلامية إلى الضغط عليهما لظروف وعوامل

---

(١) فى ديباجة سير الآباء البطاركة (طبعة اليسوعيين)

(٢) سلفستر دى ساسى Réligion des Druses : (P.417 et Suiv.)

ومما يلاحظ أن هذا العلامة هو الذى وضع فهرس الكتب العربية لمكتبة باريس ووقع فى هذا الخطأ ، الذى تابعه فيه البحث الحديث بنسبة الاثر كله الى سويرس ابن المقفع .

خاصة ،كما حدث بمصر فى عصر المأمون ، وفى عصر الحاكم بأمر الله وأيام الحروب الصليبية ؛ فهنا تبدو الرواية الكنسية متنفساً حقيقياً للتعبير عما يخالج الكنيسة ورعاياها من العواطف والآراء نحو المجتمع الاسلامى ؛ وقد تحمل الرواية الكنسية فى هذه المواقف على المبالغة والاغراق فى أحيان كثيرة ، ولكنها تحتفظ مع ذلك بقيمتها وأهميتها فى إيضاح كثير من النقط والمواقف التى تغضى عنها الرواية الاسلامية أو ترى فيها آراء أخرى.

ولا تقف أهمية الرواية الكنسية عند ذلك الحد ؛ فى بعض الأحيان ، وفى عصور السكينة والسلام ، تغدو الرواية الكنسية مصدراً قيماً لاستعراض الحوادث التى تعنى بها . وفى القسم الأخير من مجموعة « سير البيعة المقدسة » يبدو الكاتب مؤرخاً لا غبار عليه ، ويتبسط فى شرح الحوادث والشئون العامة فى أواخر الدولة الأيوبية ، ويقدم إلينا عنها رواية لابأس بها

ونرى أن نشير بهذه المناسبة إلى أنه توجد الى جانب هذه الروايات الكنسية التى تعنى بناحية خاصة من تاريخ مصر الاسلامية لم تعطها الرواية الاسلامية دائما حقها من العناية ، طائفة من الروايات النصرانية ، التى تتبوأ مقامها الحق بين مصادر التاريخ الاسلامى ؛ فلدينا مثلا تاريخ سعيد بن بطريق — بطريرك الاسكندرية الذى يصل فى كتابته حتى سنة ٣٢٦ هـ ، وتاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى الطبيب والمؤرخ ، وقد كتبه ذيلا على تاريخ ابن بطريق ، ووصل فى كتابته حتى أواخر عهد الظاهر لاعزاز دين الله الفاطمى ، وعنى فيه عناية خاصة بأخبار الحاكم وشخصه وحوادث عصره ، وتاريخ المكين ابن العميد المسمى بتاريخ المسلمين الذى يستعرض فيه أخبار الخلافة والسلطنة حتى أواخر القرن السادس الهجرى ؛ وتاريخ ابن العبرى المسمى بمختصر تاريخ الدول الذى يصل فيه برواية حتى أواخر عصره أعنى إلى أواخر القرن السابع ، فهذه الآثار التى كتبها كتاب ومؤرخون من النصارى ، وإن كانت تميل فى معظم الأحيان إلى أن تخص أخبار الكنيسة والمجتمع النصرانى بأعظم قسط من عنايتها ، تحتفظ دائما بقيمتها كمصادر لتواريخ العصور التى عنيت بها . وتمتاز هذه الآثار بميزة خاصة ، هى أنها تعنى عناية فائقة بتاريخ الدولة البيزنطية باعتبارها حامية الكنيسة الشرقية ، وتفيض فى تتبع أخبارها وعلائقها بالأمم الاسلامية إفاضة دقيقة ممتعة ، وهذه ناحية لم تخصها الرواية الاسلامية دائما بما يجب من عناية ، بل هى تعتمد غالبا فى تناولها على هذه الروايات النصرانية ، مثال ذلك أن ابن خلدون يعتمد على ابن العميد فى معظم ما كتبه عن أخبار الدولة الرومانية والدولة الشرقية (البيزنطية) ، ويرجع السر فى ذلك إلى أن أغلب الكتاب النصارى كانوا يعرفون السريانية واليونانية واللاتينية أحياناً ، ومن ثم كان اتصالهم بالمراجع الأجنبية وانتفاعهم بها .

وهكذا نرى أن الروايات الكنسية والنصرانية العربية بوجه عام فضلا عن قيمتها وأهميتها الخاصة فى سرد أخبار الكنيسة والمجتمع النصرانى ، وشرح مواقفهما فى مختلف العصور والمناسبات ، حقيقة بالدرس والمراجعة كمصادر قيمة لعصور معينة من التاريخ الاسلامى ، تلقى ضوءاً على كثير من نواحى الصلة والعلائق بين الشرق والغرب ، والنصرانية والاسلام

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

الطير والحيوان

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخرى أبو السعود

وحدة الأحياء واشتراكهم في صفات ترفعهم جميعاً عن الجماد وتميزهم بالشعور بالغبطة والألم . كل هاتيك حقائق من الموضوع بحيث اهتدى إليها الأولون قبل أن يحققها العلم الحديث ويفصل دقائقها وخوافيها ؛ وتنازع الأحياء البقاء ، وعدوان أقواها على أضعفها وفوز القوى بالغلب والبقاء ، هذه كذلك أمور واضحة رأى المتقدمون مظاهرها وظهرت لمحاتها في آدابهم ؛ وقد كان موقف الانسان منذ عصوره البدائية من الحيوان غريباً لا يخلو من تناقض وطرافة : كان في أول أمره ينازع السباع البقاء ويفترسها ليتغذى بها ، ثم استأنس بعضها وسخره في أعماله تسخير العبيد ، واتخذ بعضها للزينة والمسرة ثم عاد فقدس بعض عبيده أولئك ورفعهم إلى مصاف الآلهة ، لأنهم يدرّون على حياته خيراً وبركة ، بينما ظل يتلهى باقتناص أوابد الوحش . ويجرب بأسه وفروسيته باصماء حشاشاتها ، والتفريق بين الأمهات منها وبين الصغار

واخترع خيال الانسان في تلك العهود البعيدة عجائب الحيوان وغرائب الأطيار ومخيف الكائنات ، كما توهم البابليون وحشاً هائلا يقذف الماء من فيه فيغمر السهل والجبل ، وكما تخيل الاغريق الجياد الطائرة والسباع ذوات الرؤوس المتعددة وخلائق شعور رؤوسها أفاع باغية ، وتوهموا الأبطال المغامرين منطلقين لقتال تلك السباع والافاعي ، وكما تصور العرب الغول والعنقاء ، وزعم السندباد أنه سافر على جناح طائر ميمون يدعى الرخ ، وكما توهم أوائل الانجليز سبعاً ضارياً قد ألقى الرعب في مملكة بأسرها ، حتى صارعه فصرعه الأمير بيولف في الملحمة المسماة باسمه ؛ ولم تكن كل هذه السباع الوهمية التي هذى بذكرها الانسان في عهوده الأولى ، إلا صدى لذكريات الوحوش الهائلة التي كانت تقطن البر والبحر في غابر الأزمان ، وكان الانسان المتوحش على فزع منها وحذر دائبين

فلما بلغ الانسان طوراً من الحضارة أرقى ، أنزل تلك العجماوات التي كان ألهها من محاريب عبادته ، ونبذ تلك الخرافات وما بها من سباع وهمية ، وعلم العرب أن الغول والعنقاء مستحيلان استحالة الخل الوفي ، وظهر من المثقفين ذوى النفوس الرقيقة من انتهوا ونهوا عن قتل الحيوان والتغذى بلحمه والتلهى بصيده وتعذيبه وسجنه كأبي العلاء الحكيم العربي ، وكالمصور الايطالي ليوناردو دافنشى ، الذى كان يبتاع الطيور الحبيسة ليطلقها ويشفى نفسه المتألمة برؤيتها تضرب أجنحتها ذاهبة إلى الفضاء ؛ وظهرت آثار تلك العلاقات المختلفة بين الانسان والحيوان في الآداب : ففي الأدب الاغريقي وصف لمغامرات حملة الارغونوت التي خرجت لاستخلاص فراء ثمين يحميه غول فظيع ، وفيه وصف لجماعة السيكلوب أو المردة ذوى العيون المفردة ، وما كان بين كبيرهم وبين يوليسيز من كفاح ، وفي الأدب الفرنسي قطعتان بديعتان تفيضان رحمة وجمالا ، تصور إحداهما مصرع غزال والأخرى مصرع ذئب على أيدى الصيادين

والأدب العربي حافل بذكر أنواع الطير والحيوان التي عرفها العرب في باديتهم ، كالجمل والحصان والأسد والقطاة والحمامة ، وكان من عاداتهم أن يمنحوا بعضاً منها كنايات : فأبو قيس للقرد وأبو خالد للأسد ، وكان لبعضهم أسماء في لغتهم عديدة ، وبها ضربوا الأمثال فقالوا : أهدى من قطاة وأحذر من غراب وأعدى من ظليم ، وسيروا الكنى فقالوا : جبان الكلب ومهزول الفصيل للجواد المضياف ، واستعاروا أوصافها للإنسان فقالوا : جيد كجيد الغزال وعيون كعيون الجآذر وشبهوا خوذات المقاتلين ببيض النعام ، وتشاءموا بأصوات بعض الحيوانات كالغراب والبومة ، وزجروا الطير يتفاءلون بالسارح منها ويتشاءمون بالبارح ، وأجروا الأمثال على ألسنتها كقصة الثيران الثلاثة المنسوبة إلى الامام على ، وكالقصص التي أنطق فيها الحيوان ابن المقفع ، والمحاورات التي نحلها إياها إخوان الصفا ، واسترعت أحوال الحيوان ومسعاته انتباههم فتدبروها مليا كما في تلك الرسالة البليغة عن النمل المنسوبة إلى الامام على أيضاً ، وفي التدبر في أحوال كثير من الطير والحيوان والهوام أفاض القرآن الكريم في شتى المواضع ، ودعا الانسان إلى التفكير فيها ، وألف الجاحظ كتابه المعروف جامعاً بين العلم والأدب

وقد أطنب أدباء العربية خاصة في ذكر الإبل ووصفها في أشعارهم ، ووصف سيرها وحنينها إلى أعطانها واستحثاثها ومناجاتها ، ولا غرو فقد كانت قوام حياة العربي في حله وترحاله ، بل كان لها أثر جليل في تطور الشعر العربي ذاته ، اذا صح ما قيل من أن أوزان الشعر اشتقت من مشياتها وتدفعها ، وهو قول وجيه ؛ وقل شأن الإبل قليلا حين تحضر العرب ، ولكن ظلت لها أهمية عظيمة ، وظلت من أهم وسائل الانتقال وحمل المتاجر برا ، وحافظ أدباء العربية على تقاليد الجاهليين من الإطناب في ذكر الإبل وتقديمه بين أيدى المديح

حتى استقلت الابل بجانب عظيم من الشعر العربي ، ومن خير أوصافها قول طرفة في معلقته :

وإني لأقضي الهم عند احتضاره ... بعوجاء مرقال تروح وتغتدي
تباري عتاقا ناجيات وأتبعت ... وظيفا وظيفا فوق مور معبد

وأطنب أدباء العربية أيضا في ذكر الخيل ووصفها في أشعار الحماسة ، وما ذاك إلا لأنهم في جاهليتهم وإسلامهم كانوا أمة جلاد وكفاح ، الخيل أول عدتهم في القتال والذود عن حقيقتهم ، فكان أعز مكان في الدنى لديهم ظهر سابح كما قال المتنبي ، وطالت صحبتهم الخيل واطردت ملازمة الخيل لهم ، فكأنما ولدت قياما تحتهم كما قال المتنبي أيضا ، وكأنما ولدوا على صهواتها ، ووصفوا مواقفهم في الحروب ومواقف جيادهم ، كما فعل عنترة في معلقته ، حيث يذكر كيف ازور حصانه من وقع القنا بلبانه ، وكيف شكا إليه آلامه بعبرة وتحمحم ، وصار لكلمة الخيل أو كلمتي الخيل والرجل مغزى خاص بالحرب ، بعد أن استعملها القرآن الكريم في تلك الآية البليغة : « وأعدوا لهم ما استطعتم من عدة ومن رباط الخيل » ، وتأنق أبو تمام والمتنبي في وصف الخيل وسماتها وأخلاقها وزحوفها ، ومن بديع أوصافها في العربية قول الفرزدق في جواد أغر محجل :

فكأنما لطم الصباح جبينه ... فاقتص منه فخاض في أحشائه

وأبيات أبي تمام التي يقول منها :

وأولق تحت العجاج وإنما ... من صحة إفراط ذاك الأولق

وقول أبي الطيب في وصفه للمعركة التي دارت على ربى حصن الحدث :

إذا زلقت مشيتها ببطونها ... كما تتمشى في الصعيد الأراقم

وفاز الأسد والذئب باهتمام أدباء العربية ، وتركا في الشعر العربي أوصافا شائقة وقصصا ممتعا ، من ذلك وصف بعض المقاتلة أمام أمير المؤمنين عثمان بن عفان طلوع أحد الليوث عليهم في جلجلة ورهبة زلزلت الأرض وخلعت قلوب الفرسان وجيادهم ؛ ومنه أيضا وصف الفرزدق للأطلس العسال الذي رأى ناره موهنا فأتاه ، فقاسمه عشاءه ، حتى امتلأ الذئب فتكشر ضاحكا ، ولكن الفرزدق حين رأى نيوب الذئب بارزة لم يظن أن الذئب يبتسم ، بل جعل قائم سيفه في يده بمكان ، وتاه على الذئب بما أنا له من قرى بدل أن يرشقه بشباة سنان ؛ أما البحتري فلم يكن بهذا المكان من الجود ، بل كان يحدث نفسه بصاحبه الذئب ، كما كان الذئب يحدث نفسه بصاحبه البحتري ، فرمى الانسان الوحش فأصماه ، ونال من لحمه قليلا ؛ كذلك يصف المتنبي في أبيات هي من غرر الشعر العربي ملاقاة بعض ممدوحيه للأسد ، وتعفيره إياه بالسوط ؛ وهناك كذلك وصف البديع في بعض مقاماته لمثل هذا اللقاء الرائع بين فارس مقدام وبين ملك الحيوان ، ومنه قوله على لسان الفارس :

وقلت له : يعز على أني ... قتلت مناسبي جلدا وقسرا
ولكن رمت شيئا لم يرمه ... سواك ، فلم أطق يا ليث صبرا
تحاول أن تعلمني فرارا ، ... لعمر أبيك قد حاولت نكرا

ولما تحضر العرب وانتشر في عليتهم الترف ، تأنقوا في اتخاذ الحيوان للزينة والمتعة ، وكان الخروج للقنص من وسائل لهوهم وترويحهم عن النفس ، وكثر في الشعر وصف تلك الأفيال التي كان الخلفاء الفاطميون يسيرونها في مواكبهم ، والمها التي كانوا وكان غيرهم يزينون بها حظائرهم وقصورهم ، ووصف الخروج للقنص وكلاب الصيد ، وقد وصف أبو نواس في أبيات مشهورة كأساً له قد صورت عليها مها تدريها بالقسي الفوارس ، ووصف المتنبي لبؤة مقتولة وأشبالها حولها جاثمة ، وكان قد هيء ذلك المنظر في حفل استقبل فيه سيف الدولة سفراء قيصر ، ولابن الرومي عينية بارعة في وصف يوم طرد تمتع به في رفقة له ، ومن نوادر أبي دلامة أنه خرج مع الخليفة المهدي وعلي بن سليمان للصيد ، فأخطأ علي الرمية وأصاب أحد كلاب الصيد فقال أبو دلامة :

قد رمى المهدي ظبياً ... شك بالسهم فؤاده
وعلي بن سليمان ... ن رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما : ... كل امرىء يأكل زاده

وكان من عادة أدباء العربية أن يمثلوا لأحوالهم بأحوال الحيوان ، ويستعيروا صفاته لما هم بسبيل وصفه ، فيمثلون لحنينهم بحنين الابل إلى أعطانها ، ولوجدهم بوجد الظبية على خشفها قد صرعته نبال الصائد ، أو مزقته براثن السبع الضاري ، يصفون مصرع طفلها وافتقادها إياه وجزعها وتلددها لهلاكه ، في أبيات كثيرة يبدأونها بقولهم : « وما ظبية . . . » أو نحو ذلك ، ويعقبون عليها بقولهم : « بأوجع مني يوم بانوا . . . » أو ما إليه ؛ كما كان من التقاليد المتبعة في أشعار النسيب والوجد مناجاة الحمائم وسؤالها عما يشجيها ، ومقابلة شجوها بشجو الشاعر ، ووصف تهييجها لذكرياته وتجديدها لآلامه ومن محاسن ماقيل في الحمائم قول أعرابي :

وقبلي أبكى كل من كان ذا هوى ... هتوف البواكي والديار البلاقع
وهن على الاطلال من كل جانب ... نوائح ماتخضل منها المدامع
مزبرجة الأعناق غر ظهورها ... مخطمة بالدر خضر روائع
ترى طرراً بين الخوافي كأنها ... حواشي برد زينتها الوشائع
ومن قطع الياقوت صيغت عيونها ... خواضب بالحناء منها الأصابع

أما أشد شعراء العربية شغلا بأمر الأحياء وتأملا في أحوالها وذكرا لها في شعره فهو المعري الذي بلغ من نفاذ البصر في شؤون الحيوان وشدة الرحمة له حيا ، والانكار للؤم طباعه حينا ، وطول التأمل فيها تأملا موضوعياً لا ذاتيا ، مالم يبلغه غيره من شعراء العربية

فهو تارة ينعى على الضرغام مغادرته غابه لينازع ظبي رمل فى كناس ، وتارة يسمح للذئب بالشاة علماً بما بالذئب من داء السغب ، وتارة يبكى للحمامة البريئة يعاجلها الصقر عن نقرها وهديلها ، وطوراً يرميها بمماثلة غيرها من الحيوان فى الجور والعدوان ، وهو ينهى عن لجيعة النحل فى شهدها أو الناقة فى فصيلها فى حائيته الرصينة من لزوم مالا يلزم

لا يكاد يوجد فى الأدب الانجليزى شىء من ذكر تلك الأنواع من الحيوان سالفة الذكر ، التى احتفى بها أدباء العربية أى احتفاء ، وحفل بذكرها الشعر العربى فى شتى عصوره ، فلا الجمل ولا الحصان ولا الأسد والذئب ، ولا الحمائم والظباء ، تمثل ذلك المكان الظاهر من موضوعات الأدب وتشبيهاته وكناياته وأمثاله ؛ وذلك لاختلاف البيئة الاقليمية والاجتماعية ، فتلك ضروب من الحيوان لا تكثر فى انجلترا كثرتها فى بلاد العرب ، بل لا يوجد بعضها أصلا ، والانجليز كانوا جوابى بحار لا رحالى صحار ، ومقاتلة على الماء أكثر منهم على البر ، فلا غرو ألا يمروا بتلك الأنواع إلا عرضا ، وأن يمتلىء أدبهم بوصف ضروب أخرى من الأحياء غير هذه

إنما يحفل الأدب الانجليزى بذكر الطيور الجميلة المغردة ، ووصفها ومناجاتها ، ووصف أغاريدها والاسترسال معها إلى آماد الخيال البعيدة والطيران معها على أجنحة الشعر ؛ فالأدب الانجليزى غنى بالشعر الطبيعى الذى قصد به الوصف الطبيعى وحده ، وهذا الوصف حافل بوصف الأطيار ، والأدب الانجليزى غنى أيضا بالوصف الطبيعى لم يقصد لذاته ، وإنما يتخلل شتى أغراض القول ؛ وهذا مملوء بذكر الطير أيضاً ، والشعر الانجليزى غنى فوق ذلك بالقصائد التى كتبت خاصة فى مناجاة الطيور وعبادة أصواتها المطربة ، ولم يخل الأدب العربى من شىء من ذلك ، ومن محاسن ما فيه منه وصف الصابىء للببغاء ، وهو من غرر الشعر العربى ومنه يقول :

عدت من الأطيار ، واللسان   يوهمنى بأنها إنسان
تنظر من عينين كالفصين   فى النور والظلمة بصاصين
تميس فى حلتها الخضراء   مثل الفتاة الغادة العذراء

بيد أن الشعر الانجليزى أغزر وأحفل بتلك الآثار . ولكل من وردزورث وكيتس وشلى وتنيسون وسوينبرن قصائد فى ذلك بالغة غاية السمو العاطفى والكمال الفنى ؛ ولم يكتف الشعراء بمناجاة أطيار جزيرتهم الغريدة الكثيرة ، فلجأوا على عادتهم إلى الخرافة ، وتصور كولردج طائراً عجيبا سماه الالباتروس جلب اليمن والبركة لأصحاب الملاح القديم ، ثم جزاه هذا الأخير جزاء سنمار فقتله ، فكان ذلك سبب ضلاله وهلاك أصحابه

ومن غرر تلك الأشعار فى الانجليزية قول وردزورث : « أيها القادم السعيد ، ها أنذا أسمعك فأطرب ، أأسميك طائراً أم صوتا محلقا ؟ أنا أسمع هتافاتك المرددة وأنا مضطجع على العشب ، ويخيل إلى أنها تمر من ربوة إلى ربوة ، قريبة بعيدة فى آن واحد : ترسل أغاريدك فى الوادى المكسو بالأزهار وضياء الشمس ، فتثير فى نفسى رؤى بعيدة ، مرحبا بك يارسول الربيع ! يا من كنت إليه أستمع إذ أنا صبى بالمكتب . وطالما جعلنى هتافك هذا أتلفت فى كل ناحية باحثا فى الشجيرات والأدواح والسماء ، وطالما ضربت فى الغابات والأعشاب فى نشدانك ، وظللت أنت دائما أملا أو حبا يطول التشوق إليه ولا يرى أبداً ، وما أزال أستطيع الاستماع إليك والانبطاح فى السهل مصيخا إليك ، حتى أستعيد فى مخيلتى ذلك العهد الذهبى »

ولجون لوجان من شعراء القرن الماضى مقطوعة عذبة فى مناجاة الطائر عينه ، قد وقع فيها على بعض معانى وردزورث وتعبيراته ، وان لم يقل عنه جمالا وابتكارا ، قال : « مرحبا ياغريب الأراكة الجميل ، يارسول الربيع ، هاهى ذى السماء تعد لك مقعدك من الريف ، ويردد الغاب صدى الترحيب بك ؛ إذا مارقش الأقحوان العشب أيقنا أن سنسمع صوتك من جديد ، فهل لك نجم يهديك السبيل أو يوقت لك دورة العام ؟ أيها الزائر المطرب ، إنى معك أرحب بأوان الأزهار وأسمع الموسيقى العذبة التى ترددها الأطيار فى حواشى الخمائل ؛ ويسمع صبى المكتب صوتك المنبىء بالربيع الجديد ، وهو يطوف فى الغاب يقطف آخر زهيرات الشتاء ، فيتوقف منصتا ويقلد تغريدك ؛ أيها الطائر المطرب : إن خميلتك خضراء أبدا ، وسماؤك أبدا صافية ، وليس فى أغاريدك شجن ولا فى عامك شتاء ، فياليتنى أستطيع الطيران فأخف معك على جناح الحبور ، نطوف طوفتنا السنوية حول الأرض ، رفيقى ربيع مستمر »

بأمثال هذه الأوصاف الطبيعية الشائقة ، والمناجاة الحارة الصادقة يحفل الشعر الانجليزى ، ومثل هذا الولع بالطيور والشغف بمناجاتها ووقف القصائد والمقطوعات على الترنم بحبها غير شائع فى الأدب العربى ؛ فالشعر العربى أحفل بذكر الحيوان ولا سيما الضروب سالفة الذكر ، والشعر الانجليزى قليل الاحتفال بها عظيم الحفاوة بالطير ؛ ولا غرو : فقد كان العرب رجال مجتمع مقبلين على أسبابه ووسائله ، يحمدون الإبل التى هى قوام حياتهم والخيل التى هى عمادهم فى معركة الحياة ، ويتمدحون بالبأس والشجاعة فيذكرون قتال الأسود وجندلة الذئاب ، وفيما عدا ذلك لم يكن لهم كبير التفات إلى الطبيعة ، ولا شديد عطف على أبنائها ، وأشعارهم فى هذا الباب لا تنم عن حب للحيوان أو شغف بحياته ؛ وكان حب الطبيعة والهيام بجمالها من أكبر مميزات الأدب الانجليزى ، والطيور أكثر تمثيلا لجمالها وحبورها من الأسود والذئاب ، فكثر فى الأدب الانجليزى وصف الطيور كما كثر وصف الأزهار والآجام والأنهار ؛ وفى شغف الأدب الانجليزى بهذه واحتفاء الأدب العربى بتلك رمز وبيان للصبغة الاجتماعية التى ترين على الأدب العربى ، والنزعة الطبيعية التى تتجلى فى الأدب الانجليزى

فخرى أبو السعود

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٤ —

لانظن بعد الذى تقدم أن الرئيس ابن سينا قد ادخر وسعا فى إثبات حقيقة مغايرة للجسم ومتميزة عنه كل التميز، وأن فى الكائن الحى شيئا غير لحمه ودمه هو مصدر حركته وحسه وتفكيره. وسواء أكان موفقا فى برهنته دائما أم لا فالمهم أنه اعتمد – كما اعتمد أنصار المذهب الروحى قديما وحديثا – على بعض الظواهر التى لا يمكن تفسيرها تفسيرا ماديا، ورأى أنها تستلزم قوة كامنة ومبدأ خفيا هو النفس. وهذه الظواهر قسمان: جسمية وعقلية؛ ومن الأولى يتطرق الخلل والوهن غالبا الى برهنته. ففى اللحظة التى يتحدث فيها عن الإحساس أو الحركة زاعما أنها لا تفهم الا إن سلمنا بقوة روحية تشرف عليها وتنظمها نراه يبعد عن الآراء الحديثة كل البعد؛ أما حين يعرض للشخصية والتفكير والظواهر النفسية فى وحدتها واتصالها ويقرر أنها تستدعى أصلا غير الجسم وأمرا مخالفا للبدن فانه يدلى بأفكار تقربه من المحدثين بقدر ما تبعده عن زملائه ومعاصريه. وهذا هو الجزء الذى بقى للخلف من برهنته، والذى يجدر بنا أن ندخره ونحتفظ به. ولسنا ندعى مطلقا أنه أثبت وجود النفس بأدلة هى اليقين وحجج لا تقبل النقض؛ فتلك كانت ولا تزال مشكلة المشاكل وموضع الخلاف بين الماديين والروحيين. والمهم أنه اهتدى فى هذا الباب الى أكثر البراهين اقناعا وأعظمها وضوحا.

والآن وقد فرغ من اثبات وجود تلك الحقيقة المخالفة للجسم فلا بد له من أن يحددها ويبين ماهيتها ويعين خواصها ومميزاتها. وليس تحديد النفس من الأمور الهينة؛ فقد كان مثار اختلافات كثيرة بين الفلاسفة الأقدمين، ومبعث أخذ ورد طويلين بين أفلاطون وارسطو بوجه خاص. ولم يكن ابن سينا بعيدا عن هذه الآراء المتباينة والمذاهب المتفرقة، فان الباب الأول من كتاب النفس لأرسطو، الذى يعد حجته الأولى ومصدره الرئيسى، موقوف فى جملته عليها وخاص بعرضها ومناقشتها(١). وسيرا على سنته يعقد فى كتابه الشفاء فصلا «فى ذكر ماقاله القدماء فى النفس وجوهرها ونقضه (٢)» وفيه يلخص كل ماجاء فى الباب الآنف الذكر. ليبين مذاهب الفلاسفة السابقين، ويناقشها على نحو يشبه كثيراً ماصنعه أرسطو. واختلاف هؤلاء الفلاسفة فى رأيه راجع إلى أن للنفس أثرين ظاهرين هما الحياة والحركة من جانب والادراك من جانب آخر، ففريق بهره الأثر الأول وحاول تجريد النفس بواسطته فقط، وفريق آخر لم يفهم فى طبيعتها إلا الادراك، وفريق ثالث رأى أن يجمع بين هذين الجانبين. ويراد بالفريق الأول كل أولئك الذين عدوا النفس مصدر الحياة والحركة الذاتية، فخلطوا بينها وبين الدم الذى إن سفح كان الموت، أو بينها وبين الجواهر الفردة – أو الهباء كما يسميه ابن سينا – التى كان يظن أنها متحركة دائما. وأما الفريق الثانى فيعتقد أن الشىء لايدرك سواه إلا إذا كان مبدأ له ومتقدما عليه؛ ولذلك عدوا النفس واحداً أو جملة من المبادىء التى يختلف نوعها وعددها تبعا للفلاسفة فظنوا أنها نار أو هواء أو أرض أو ماء أو بخار؛ أو جعلوها مركبة من العناصر الأربعة كما ذهب إلى ذلك أنباء دقليس زعما منه أن الشبيه هو الذى يدرك الشبيه، فلا بد أن يكون فى النفس جزء من الأشياء التى تدركها. وأما الفريق الأخير فيرد النفس إلى العدد لأن الأعداد مبدأ الوجود والحركة والادراك (١)

واضح أن ابن سينا يشير فى كل هذا إلى آراء الفلاسفة السابقين لسقراط فى النفس، أمثال طاليس وديمقريط وفيثاغورس وإن كان لم يصرح بأسمائهم. ولم يقنع بتلخيص هذه الآراء، بل ناقشها مناقشات طويلة عنيفة نكتفى بأن نسرد أمثلة منها. فيعترض على الفريق الأول أنه لم يفسر السكون، ذلك لأن النفس إن كانت متحركة بذاتها فكيف تسكن. على أنه ليس من السهل على هذا الفريق أن يحدد نوع الحركة الذى تقوم به النفس. ويرفض المذهب الذرى الذى أثبت بطلانها فى نواح أخرى. ولا يخفى تهكمه بأولئك الذين يزعمون أن الكائن لايدرك إلا ماصدر عنه ملاحظا أن الانسان يعلم أشياء كثيرة لم يقل أحد إنه أصل لها. وليس بصحيح مطلقا أن الشبيه فقط هو الذى يدرك الشبيه، لأنه لو سلم هذا كان معناه أن العالم العلوى لايعرف من أمر العالم السفلى شيئا (٢)

ليس هناك شك فى أن وقوف ابن سينا على هذه الآراء ومناقشته لها قد هيأت له الفرصة لتخير أحسن تعريف يلتئم مع طبيعة النفس ووظائفها. إلا أن هناك عاملين قويين يتقاسمانه. وصوتين عظيمين يتجاذبانه، وهو بينهما فى حيرة واضحة وتردد ظاهر أو تناقض مكشوف أحيانا. فحين يقرأ عبارات أرسطو الأخاذة وتحليلاته المنظمة واعتراضاته المفحمة لايلبث أن يرددها ويسير وراءها. وحين يسمع أفلاطون ينادى بجوهرية النفس وتميزها التام عن البدن

(1) Aristote, De l'ame, I, 2-5.

(٢) ابن سينا، الشفاء، ج ١ ص ٢٨٢

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٢ – ٢٨٤.

يستولى عليه هذا النداء ويصادف هوى فى نفسه وان كان لايتفق مع آراء أرسطو . وقد يقف موقفا وسطا بين هذين الطرفين المتقابلين محاولا الجمع والتوفيق .

يبدأ ابن سينا فيلاحظ أن الأجسام الطبيعية مكونة من هيولى وصورة . فأما الهيولى فهى تلك المادة التى يتكون منها الجسم كالخشب الذى يصنع منه الكرسى أو كالحديد الذى يعمل منه السيف . وأما الصورة فهى مابه تتميز الأجسام بعضها عن بعض وتتحدد ماهيتها وتقوم بوظائفها . فالأرض لاتفترق عن الماء بمادتها بل بصورتها ، والانسان إنسان بصورته لا بمادته المكونة من العناصر الأربعة ، والسيف لايقطع بحديده بل بحدته . وبما أن الكائن الحى جسم طبيعى فهو مركب من هيولى وصورة ، والأخيرة هى التى تميزه من الكائنات غير الحية إذ أنها مصدر حياته وحسه وحركته . فالنفس إذن صورة الجسم . والصور كمالات كلها وكمالات أولية ، لأن وجود الأشياء المختلفة لا يكتمل إلا بها . وليست النفس كمالا أوليا لجميع الأجسام ، بل للأجسام الطبيعية فقط التى تمتاز بالحياة عن الأجسام الصناعية وتشتمل على آلات وأعضاء تقوم بوظائف متباينة . فهى كمال أولى لجسم طبيعى آلى (١)

يخيل إلينا أن القارىء سيدرك على الفور المصدر الذى أخذت عنه هذه الأفكار . فان ابن سينا لم يصنع شيئاً أكثر من أنه لخص الفصلين الأول والثانى من الباب الثانى من كتاب النفس لأرسطو (٢) ولم يكتف بأن يعتنق آراء الفيلسوف اليونانى ، بل أبى إلا أن يردد بعض ألفاظه وتعبيراته . فلفظ « كمال » الذى يتشبث به ويبنى عليه تعريفه ترجمة صحيحة لكلمة « أنتليشيا » اليونانية ، وقوله إن « النفس صورة الجسم » ترجمة أخرى لتعبير أرسطى مشهور (٣) فاذا كان التعريف السابق ناقصاً أو معيباً من بعض نواحيه فالذنب فى هذا لا يرجع إلى الفيلسوف العربى وحده ، وإنما يشاركه فيه أستاذه اليونانى صاحب الفكرة الأولى . وإذا تركنا جانبا لفظة « كمال » أو « أنتليشيا » ، وما فيها من غموض فإنا لانلبث أن نصطدم بهذه الجملة : « النفس صورة الجسم » . تعبير رائع أخاذ من غير شك ، ولكنه لايقدم كثيراً فى تفهم حقيقة النفس وتحديد ماهيتها . وكم عودنا أرسطو هذه التعبيرات الحلوة التى يدمج فيها بعض المشاكل دون أن يحلها وفكرة الصورة من الأفكار الجوهرية فى مذهبه إلا أنها فى الوقت نفسه من أدق نقطه وأصعبها تلاؤما مع نزعته الواقعية . فان من يقول بالصورة يدنو من المثالية الأفلاطونية وإن تحامل عليها . والواقع أن أرسطو لم يأل جهدا فى نقد مثالية أفلاطون التى تقول إن النفس حقيقة

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٧٨ – ٢٨٠ – رسالة فى القوى النفسانية ، ص ٢٤ – ٢٦

(2) Aristote. De l'âme, II. 1-2.

(3) Ibid., 412 a , 20.

متميزة من الجسم . ويصرح بأن ما ذهب إليه الافلاطونيون والفيثاغوريون من أن النفس جوهر روحى أشبه بالخيال منه بالحقيقة ؛ ولا يستطيع أن يتصور أن نفسا ما تأتى من الخارج وتحل فى جسم ما . وكيف نقبل هذا ومؤداه أن النفس تدخل الجسم كما يوضع مظروف فى ظرف خاص ؛ ومن المقرر أن المادة غير قابلة للعزل عن صورتها (١) ومع هذا فإن أرسطو يفسر النفس تفسيرا أدخل فى باب المثالية من فرض أستاذه ؛ فانه يعتبرها صورة ، وليست الصورة شيئا أو مادة بأى شكل من الأشكال . تناقض واضح ومنتظر من كل فيلسوف واقعى لا يزال يحتفظ بقدر من المثالية .

وكأن ابن سينا قد أدرك مافى التعريف السابق من نقص بدليل مالاحظه من أنه لايفسر النفس من حيث هى وإنما يعرفها من ناحية صلتها بالجسم فقط (٢) . لهذا أخذ على عاتقه أن يتلافى هذا النقص وأن يوضح ذات النفس مميزا إياها بخاصتين رئيسيتين هما الجوهرية والروحية . وفى حديثه عن هاتين الخاصتين يعرب لنا عن جدلى ماهر ومحلل دقيق وباحث عميق . ونحن نعلم أن الجوهر والعرض متقابلان بل ومتناقضان وإن كان تناقضهما غير صحيح ، فان كل ماليس بجوهر عرض . فاذا استطعنا أن نثبت أن النفس ليست واحدا من الأعراض لزم من هذا أنها جوهر قائم بذاته . ولعل أول شىء ينفى عنها العرضية هو أنها مستقلة كل الاستقلال عن الجسم ؛ وهذا الأخير محتاج إليها تمام الاحتياج فى حين أنها لا تحتاج إليه فى شىء . ولن يتعين جسم ما ويتحدد إلا إذا اتصلت به نفس معينة . وعلى عكس هذا النفس هى هى سواء اتصلت بالجسم أم لم تتصل به . ولا يمكن أن يوجد جسم بدون النفس مع أن هذه تستطيع أن تعيش بمعزل عنه ؛ وما دامت هى مصدر حياته وحركته فلا وجود له بدونها . ولا أدل على هذا من أنه يتغير ويصبح شبحا من الأشباح إذا ما انفصلت عنه . فالنفس إذن جوهر قائم بذاته لا عرض من أعراض الجسم (٣) . وهنا يبتعد ابن سينا عن أرسطو بعدا واضحا ؛ فإن من المبادىء المسلمة لدى الأخير أن ليس ثمت وجود مستقل للصورة بمعزل عن مادتها .

وليس القول بجوهرية النفس من الآراء التى ابتكرها ابن سينا ؛ فقد سبقه إلى هذا أفلاطون وتوسع فيه رجال مدرسة الاسكندرية . غير أن هناك فارقاً بينه وبينهم ، فبينما هؤلاء يعدون النفس جوهر لا غير يقرر هو أنها جوهر وصورة للجسم فى آن واحد ، وفى هذا من التعارض مافيه وإن كان يفسره بأنها جوهر فى ذاتها وصورة من ناحية صلتها بالجسم . والسر فى هذا التعارض الذى وقع فيه الفارابى من قبل أن الفيلسوفين العربيين متأثران بمصدرين مختلفين ؛ فقد أخذا

(1) Ibid., 407 b,13.

(٢) ابن سينا ، الشفاء ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨٥ .

فكرة الصورة عن أرسطو كما أخذا فكرة الجوهر عن أفلاطون؛ ولم يريا أية غضاضة فى أن يطلقا هاتين على النفس ، خصوصاً وقد ذلل لهما أرسطو ذلك؛ فانه لم يستعمل كلمة «جوهر» فى معنى محدود فيطلقها على المادة تارة والصورة أخرى وعليهما معاً مرة ثالثة . ومن الغريب أن صاحب كتاب الربوبية الحرانى يفسر عبارة ارسطو المشهورة : «النفس صورة الجسم» تفسيراً يشبه كل الشبه ماجاء به فلاسفة الاسلام؛ ولعل هؤلاء تأثروا به وخلطوا على نحو ماصنع الأرسطية والافلاطونية (١) ولكنه لايفوتنا أن نلاحظ أن ابن سينا كلما بعد عن جو الآراء الارسطية وخلص إلى نفسه عد الروح جوهرا فحسب ولم يشر قط إلى صورتها . فاذا كان يعرفها فى الشفاء والنجاء اللذين يحاكى فيهما جماعة المشائين أنها كمال وصورة للجسم فإنه لايتحدث عنها فى كتاب الاشارات الذى يبدو فيه استقلاله وشخصيته إلا باسم الجوهر والجوهر الروحى القائم بذاته . وفى هذا مايبين لنا كيف غلبت أفلاطونيته على انتسابه لأرسطو فى هذا الموقف .

«يتبع» ابراهيم مدكور

(١) كتاب الربوبية ، ص ٤ ، ٧ ، ٢٤ .

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسى ألفونس كار

— ٥ —

قالت الزهرة المائتة للزهرة الخالدة :

— لقد تمتعنا بالحياة معاً على مرج واحد ، وغداً تلفحنا نسمات الربيع المودع فتذوى وريقاتى وأموت ، وتبقين أنت خالدة فى الحياة

ستقبلك الشمس مشرقة ومغربة فتشرب من وجنتيك دموع الصباح وأنت مصغية الى أناشيد الأطيار

ما أحلى الحياة وما أجمل البقاء ! ويلاه من قضاء أبرم على حكم الفناء !

فأجابت الزهرة الخالدة : — كل شىء يتغير ويتطور وأنا وحدى أشهد فى جمودى نشوء الطبيعة وتحولها

تمرّ بى لفحات القرّ وتداعبنى نفحات الصيف فلا الشتاء يميتنى ، ولا الربيع يحيينى ، وأنا أحمل تاجى الأصفر الدائم فلا أخاف الموت ولا أشعر بالحياة

تمرّ بى أسراب النحل فلا أسمع لها طنيناً ، ويجانبنى الفراش المتطاير فلا تلمسنى جناحاه

يهبّ النسيم فيمر بى سراعاً دون ان يستوقفه منى أريج يتضمخ به ، وتقترب الغادة منى ثم تبتعد وهى تحدجنى بلفتات الاحتقار

من يقطف زهرة القبور ، زهرة الخلود الصفراء الدائمة الذبول؟

تمايلى على ساقك النضير يازهرة الربيع ، وارفعى أبصارك إلى السماء شاكرة ، سقياً لك ! فانك ستحلين رموز الموت بعد أن عرفت أسرار الحياة

أما أنا الضحية البريئة ، فلسوف أبقى عرضة لحر النهار وبرد الليل ، تضربنى شمس يوليه وتعانقنى ثلوج يناير ، سوف أبقى فى الحياة لأسمع فى الليل أنين العظام البالية فى القبور

* * *

ستموتين يازهرة الربيع فترتفع روحك مع زكى عبيرك إلى السماء

اذهبى بسلام واحملى توسلى إلى العلى ، قولى للذى خلقنا : إن دوام البقاء على الأرض ضربة لا عطية ، توسلى إليه ليدعونى إلى مصدر كل سعادة وكل حياة (ف . ف)

١٣ – هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الاستاذ فليكس فارس

لسعة الأفعى

واستسلم زارا للكرى يوما تحت شجرة التين ، وكان الحر شديداً فستر وجهه بساعده فأتت أفعى ولسعته فى عنقه فصرخ متألماً وانتفض محدقاً بالأفعى فعرفت عينيه وتململت لتنصرف ، فقال لها زارا : — « لا تذهبي قبل أن أقدم لك شكرى ، لأنك نبهتنى فى الزمن المناسب لأقوم بسفر بعيد »

فأجابت الأفعى وفي صوتها غنة الأسى : — بل سفرك قريب فزعافى قاتل

وابتسم زارا وقال : وهل لزعاف الأفعى أن يقتل تنيناً ؟ خذى سمك ، إنى أعيده اليك فلست من الغنى على ما يسمح لك بتقديمه هدية لى .

وسارعت الأفعى الى الالتفاف حول عنق زارا تلحس جرحه .

وقص زارا هذه الحادثة يوما على أتباعه فقالوا له : وما هو المغزى الأدبى لهذه القصة ، فاجاب : — إن أهل الصلاح والعدل يدعوننى هداما للمبادىء الادبية فقصتى لا تتفق وهذه المبادىء .

اذا كان لكم عدو فلا تقابلوا شره بالخير لأنه يستصغر بذلك نفسه ، بل أكدوا له أنه أحسن بعمله اليكم ، والأجدر بكم ألا تحتقروا أحداً ، تظاهروا بالغضب ، واذا وجهت اللعنة اليكم ، فلا يسرنى أن تمنحوا البركة ، إن ما يسرنى هو ألا تأبوا اللعن أنتم أيضا ، واذا ما أنزلت بكم مظلمة كبيرة فبادلوا المعتدى مثلها وارفقوها بخمس مظالم صغرى ، لأنه ما من مشهد أشد قبحا من مشهد من لا يخضع إلا للظلم .

إن اقتسام المظالم بالتساوى إنما هو مساواة بالحق ، فهل كنتم تعرفون هذا من قبل ؟ من يقدر على إرهاق الناس بظلمه فعليه أن يحتمل هو الظلم أيضا .

لأن ينتقم الانسان قليلا ، فذلك أدنى إلى المعروف وليس من الانسانية أن يترفع المظلوم عن الانتقام . إننى لأنفر من اقتصاصكم إذا لم يكن عبارة عن حق تؤدونه للمعتدى ، وإن من يسند الخطأ الى نفسه لأنبل ممن يعلنون فى كل آن أن الحق فى جانبهم ، وأخص من هؤلاء من كانوا حقيقة على صواب . ان أغنياء الروح لا يفعلون هذا .

انى أكره عدالتكم الباردة ، فان فى عيون قضاتكم ازورار الجلاد ولمعان سيفه . فأين العدالة تلمح فى عينيها الصفاء . أوجدوا لى الحب الذى لا يكتفى بحمل كل أنواع العقاب ، بل يحمل أيضا جميع الخطايا .

أوجدوا لى العدل الذى يبرىء الجميع ليحكم على الانسان الذى يدين .

أتريدون أن أذهب الى أبعد مما قلت فأعلن لكم أن الكذب نفسه يصبح محبة للانسانية فى نفس من يتوق الى إقامة العدل .

ولكن هل بوسعى أن أقيم العدل بكل اخلاص . وكيف يمكننى أن أتوصل الى اعطاء كل ذى حق حقه . اذن ، لأكتفين بان أعطى أصحاب الحق حق الخاص .

وأخيراً ، حاذروا ظلم المنفرد ، اذ ليس بوسعه أن ينسى وأن يبادل الظالمين ظلما ، وما المنفرد الا بئر عميقة يسهل على من يشاء أن يلقى فيها حجراً . ولكن من يقدر أن يستخرج هذا الحجر اذا بلغ قعر البئر السحيق ؟

احترسوا من اهانة المنفرد ، واذا أنتم حقرتموه فاجهزوا عليه بقتله .

هكذا تكلم زارا . . .

الفصل الثانى

الطفل حامل المرآة

ورجع زارا الى الجبال ، الى عزلة كهفه ليحتجب عن الناس كالزارع ألقى بذوره فى أثلام أرضه وبات يتوقع نبتها ، ولكنه ما لبث أن حنت جوارحه الى أحبابه اذ كان عليه أن يمنحهم بعد كثيرا من الهبات وأصعب ما يلقى المحب اضطراره الى قبض يده اجابة لداعى محبته وتفاديا للمنة فى عطائه .

ومرت على المنفرد الشهور والأعوام وحكمته تزداد نموا فتزيده ألما باتساع آفاقها .

وأفاق يوماً من نومه قبل انفلاق الفجر واستغرق في تفكيره وهو ممدد على فراشه وتساءل قائلا :

— لماذا أرعبني هذا الحلم الذي استفقت منه مذعوراً ؟ رأيت كأن ولدا يحمل مرآة ، اقترب مني وهو يقول :

— انظر في هذه المرآة يازارا

وما نظرت الى المرآة حتى صرخت وخفق قلبي خفوقا شديداً . لأن ما انعكس لي في المرآة لم يكن وجهي بل وجها تقطبت أساريره بضحكة شيطان ساخر

والحق ما يفوتني تعبير هذا الحلم وإدراك ما نبهت اليه فان تعاليمي مشرفة على خطر، والزوان يريد أن ينتحل صفات الحنطة. لقد استأسد أعدائي فشوهوا تعاليمي حتى أصبح أتباعي يخجلون مما وهبتهم .

لقد فقدت صحبي وآن لي أن أفتش عمن فقدت

وانتفض زارا لا كمن استولى الذعر عليه بل كمأخوذ برؤى وكشاعر هزه شيطانه . فوجم نسره وأفعاه وحدقا بوجهه وقد لاحت بوادر السعادة عليه كتباشير الفجر . فقال لهما :

— ماذا حدث لي ؟ أفما تريان انني تغيرت ؟ افما تحسان ان الغبطة قد نزلت علي كأنها عصفات الرياح ؟

لقد جنّ شعوري بهذه السعادة فلن يسلم بياني من اختلال هذا الشعور ، ان سعادتي لم تزل في حداثتها فتذرعا بالصبر معي عليها

لقد أوجعتني سعادتي فليكن أساتي كل من أرهقتهم الأوجاع

إن في وسعي الآن أن أنحدر الى مقر صحبي والى مقرّ أعدائي

فقد أصبح زارا قادراً على استطراد القول والاحسان الى من يحب

لقد آن لحبي أن يتدفق كالذي يندفع من الأعالي الى الأعماق ، ويتجه من الشرق الى المغرب .

إن نفسي تندفع مزغية مزبدة في الوديان متملصة من الجبال الصامتة تصخب فوقها عواصف الآلام. ولطالما تعللت بالصبر وعلقت أبصاري على بعيد الآفاق ، لقد أرهقتني العزلة فما أطيق السكوت بعد

أصبحت وكأنني بأجمعي فمٌ أو هدير جدول يتحدر من شامخات الصخور . أريد أن أقذف بكلماتي الى الأغوار . فيجري نهر حبي في المفاوز البعيدة ، ولن يضل هذا النهر سبيله الى مصبه في البحار

ان في داخلي بحيرة وحيدة قانعة بنفسها ، غير ان نهر محبتي يجتذبها في مسيره ليقطع معها السيول ويترامى واياها في لجة البحر

انني أتبع مسالك لم أعرفها من قبل وألهمت بيانا جديدا ، بعد أن اتعبتني اللهجات القديمة التي ترهق كل المبدعين وقد امتنع على فكري أن يقتفي رواشم النعال المقطعة

ما من لغة إلا وأراها بطيئة تقصر عن مجاراة بياني

سأقفز الى صهوتك أيتها العاصفة فألهبك أنت أيضاً بسوط سخريتي

أريد أن أقطع أجواء البحار كهتفة مسرة وحبور الى أن أستقر على الجزائر السعيدة حيث يقيم أحبابي ، وبينهم اعدائي أيضاً ، لشد ما أحب الآن جميع من يتسنى لي أن اوجه إليهم الكلام . وسيكون لهؤلاء الاعداء أيضاً قسطهم في إيجاد غبطتي

عندما أتحفز لاعتلاء أشد جيادي جموحاً لا أجد لي معيناً أصدق من رمحي متكأً أرتفع عليه

هو رمحي أهدد به أعدائي ، ولكم يستحقون ثنائي اذا ماتمكنت من طرح هذا الرمح من يدي :

لقد طال اصطبار غيومي بين قهقهة الرعود وقد آن لي أن أرشق الأعماق بقذائف برَدَي .

إن صدري سيتعاظم بانتفاخه حتى يزفر بالعاصفة الهائلة على الشامخات وهكذا سأفرّج عنه

فان سعادتي وحريتي سيندفعان اندفاع العواصف ولكنني أتمنى لو يحسب أعدائي أن ما يزمجر فوق رؤسهم إنما هو روح الشر لا روح سعادة وحرية

وأنتم أيضاً أيها الصحاب سيتولاكم الرعب عندما تنزل عليكم حكمتي الكاسرة ولعلكم تولون هاربين منها كما يهرب الأعداء

ليت لي أن أستدعيكم إليّ بحنين شبّابة الرعاة ، وليت تتعلم لبؤة حكمتي أن تزأر بنبرات العطف والحنان ، فلطالما وردنا سويا من مناهل العرفان ، ولكن حكمتي الوحشية تمخضت بآخر صغارها في الجبال السحيقة بين الجلامد الجرداء ، وهي الآن تطوف بجنونها الصحارى القاحلة مفتشة على المروج الناضرة

إنها لشيخة وحشية هذه الحكمة التي تقصد إنزال أعز مالديها في مروج قلوبكم الناضرة

هكذا تكلم زارا .

(يتبع)

فليكس فارس

إحياء النحو

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

لا شك فى أن نحونا العربى أصبح علماً جافاً يورث النظر فيه السأم والملل . ولا يسعنى مع هذا أن أنكر تلك الجهود الموفقة التى بذلها الأستاذ الجليل على الجارم فى تسهيل النحو وتجميله فى كتاب (النحو الواضح) فصارت به دروس النحو الأولى سهلة مقبولة لدى الناشئين ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وتقرن العلم بالعمل قرناموفقاً ، ولكن نحونا العالى لا يزال فى الحالة السيئة التى وصل اليها من يوم أن أخذ من أحضان علم الأدب الذى نشأ النحو فى ظله ، وترعرع فى أرضه الخصبة .

وكان الامام على بن عيسى الرمانى أول من انتزع النحو من حضنه بين الأدب وعلومه ؛ وقد ولد الرمانى سنة ٢٧٦ هـ وأخذ عن الزجاج ، وابن السراج ، وابن دريد ، ثم برع فى علم النحو حتى قال أبو حيان التوحيدى : لم ير مثله قط علما بالنحو ، وغزارة بالكلام ، وبصراً بالمقالات ، واستخراجاً للعويص ، وإيضاحا للمشكل ، مع تأله وتنزه . ودين وفصاحة ، وعفاف ونظافة ، وكان يمزج النحو بالمنطق ، حتى قال الفارسى إن كان النحو ما يقوله الرمانى فليس معنا منه شىء ، وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شىء - قلت : النحو ما يقوله الفارسى ، ومتى عهد الناس أن النحو يمزج بالمنطق ، وهذه مؤلفات الخليل وسيبويه ومعاصريهما ومن بعدهما بدهر ، لم يعهد فيها شىء من ذلك .

على أن النحو لم يزل يبعد عن الأدب بعد الرمانى شيئا فشيئا ، حتى أصبح العالم بالنحو لا يدرى شيئا من الأدب ، ولا يستطيع أن يقوم لسانه أو قلمه إذا نطق أو كتب ، وحتى أصبحت بعض الشواهد النحوية تروى مغلوطة وتمضى عليها أزمان طويلة فلا يتنبه إلى غلطها ، ولا يعرف مع هذا قائلها ، وليس هذا إلا من فصل النحو عن الأدب ، والعناية بحفظ قواعده ونكاتها الفلسفية ، وإهمال صبغته الأدبية التى كانت تراعى فى عهد ازدهاره .

وإني أسوق من ذلك هذا الشاهد الذى يذكر فى باب التوكيد

يا ليت عِدّةَ حول كلِّهِ رَجَبُ ... لكنه شاقه ُأن قيل ذا رجبُ

برفع كلمة (رجب) فى آخر البيت ، فهذا الشاهد لا يعرفون قائله إلى الآن ، وهم مخطئون فى رفع كلمة (رجب) فى آخر البيت لأنها من قصيدة رويها على النصب لا على الرفع . وقد جاء فى كتاب الكامل للمبرد وشرحه رغبة الآمل للشيخ المرصفى (ص ٢١٤ ج ٧) أن عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلى كان يؤم بالناس فى مسجد الأحزاب بالمدينة ، فلما وليها الحسن بن زيد منعه أن يؤم الناس فى هذا المسجد ، فقال له : أصلح الله الأمير ، لم منعتنى مقامى ومقام آبائى وأجدادى من قبلى ؟ قال : ما منعك منه إلا يوم الأربعاء ، يريد قوله :

يا لَلرجال ليوم الأربعاءِ أمَا ... ينفكُ يحدث لى بعد النُّهَى طَرَبَا

إذ لا يزالُ غزال فيه يفتننى ... يأتى إلى مسجد الأحزاب مُنتقِبَا

يُخبِرُ الناسَ أن الأجر همتُهُ ... وما أتى طالباً للأجر محتسبا

لو كان يطلب أجراً ما أتى ظُهُراً ... مُضمَّخاً بفتيت المسك مختضباً

لكنه شاقه أن قيلَ ذا رجب ... ياليت عِدّة حول كلِّهِ رجبَا

فإن فيه لمن يَبغى فواضِلَهُ ... فضلا وللطالب المرتاد ما طلبا

كم حُرَّةٍ دُرَّةٍ قد كنتُ آلَفُها ... تسدُّ من دونها الابوابَ والحجبا

قد ساغ فيه لها مَشْىُ النهار كما ... ساغ الشرابُ لعطشان إذا شربا

يقال شهر عظيمُ الحقِّ فى سَنَةٍ ... يهوى له كلُّ مكروب إذا كربا

فاخرجنَ فيه ولا ترهَبْنَ ذا كذب ... قد أبطَلَ الله فيه قول من كذبا

وكانت ولاية الحسن بن زيد بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب المدينة سنة ١٦٠ هـ فى عهد أبى جعفر المنصور ثانى ملوك العباسيين

فإحياء النحو عندى بأن تعاد له صبغته الأدبية التى كانت له وليس إحياؤه بتطويل الكلام فى أن الفتحة ليست علامة إعراب كما قرأته فى بعض الكتب الحديثة ، فإن هذا مما يزيد فيه الطين بلة ، ولا يؤدى بنا إلى الاصلاح المنشود له

عبد المتعال الصعيدى

تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الجاهلية : شعرها وعاداتها ودياناتها

ترجمة حسن حبشى

وقد وضع الاسلام حداً لهذه الوحشية واستهجنها القرآن ونها عنها فى قوله (١) (ولاَ تَقتُلوا أولاَدَكُمْ خشيَةَ إملاَقٍ نحنُ نرزُقُهمْ وإيَّاكُمْ إنَّ قتلَهُمْ كانَ خِطأً كبيراً) وربما كانت الأبيات التالية تفصح عن هذا تمام الإفصاح ، وفيها نرى صراعا عنيفاً بين رجل وبين الفاقة ، ويحمد الله أن كان مصرع ابنته قبل مصرعه حتى لا تكون تحت رحمة أقاربها (٢) :

لوْلاَ أُمَيْمَةُ لمْ أجزَعْ مِنَ العَدَمِ
وَلَمْ أُقاسِ الدُّجَى فى حِنْدِسِ الظُّلَمِ
وَزَادَنِى رَغبَةً فى العَيْشِ معرِفَتِى
ذُلَّ اليَتيمةِ يَجفوهَا ذَوُو الرَّحِمِ
أُحاذِرُ الفقرَ يَوماً أنْ يُلِمَّ بِهَا
فيَهتِكُ السِّتْرَ عن لَحْمٍ على وَضَمِ
يَهْوَى حيَاتى وأهوَى مَوْتَها شَغَفاً
والموْتُ أكْرَمُ نزَّالٍ على الحُرَمِ
أخشَى فظَاظةَ عَمٍّ أو جفاءَ أخٍ
وكُنْتُ أُبْقِى عليهَا منْ أذَى الكَلِمِ (٣)

---

(١) الاسراء (١٧ : ٣١) وقد ورد فى القرآن الكريم فى موضع أخر (التكوير ٨ - ٩) يوم الموقف والسؤال (وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت)

(٢) الحماسة ١٤٠ . وبالرغم من أن هذه الأبيات لم تنظم فى الجاهلية وانما ترجع إلى عصر متأخر فى الاسلام الا أنها تمثل هذه النزعة الوثنية تمام التمثيل وقد عاش ناظمها اسحق بن خلف أيام الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م) وقد تبنى بنت أخته إذ ماتت ابنته . راجع كذلك الكامل للمبرد ص ٧١٥ ، وقد ترجم المقطوعتين سير شارلز ليل فى كتابه Anc. Ar. Poetry, P. 26

(٣) ذكر المبرد قصيدة فى هذا المعنى وهى التى أشار اليها نيكلسون وترجها ليل:

أمست أميمة معموراً بها الرجيم   لقى صعيد عليها الترب مرتكم
ياشقة النفس ان النفس والهة   حرى عليك ودمع العين منسجم
قد كنت أخشى عليها أن تقدمنى   الى الحمام فيبدى وجهها العدم
فالآن نمت فلا هم يؤرقنى   بهدا الغيور اذا ماأودت الحرم
للموت عندى أياد لست أنكرها   أحب سرورا وبى مما أتى ألم

(المترجم)

ويقول آخر فى هذا الموضوع : (١)

لوْلاَ بُنيَّاتٌ كزُغْبِ القَطا   رُدِدْنَ منْ بَعْضٍ إلى بَعْضِ
لكانَ لى مضْطَرَبٌ واسِعٌ   فى الأرْضِ ذاتِ الطولِ والعَرْضِ
وإنَّمَا أوْلادُنا بيْنَنَا   أكبادُنا تمشى على الأرضِ
لوْ هَبَّتِ الرِّيحُ على بَعْضِهِمْ   لامتنعَتْ عينى منَ الغمْضِ (٢)

***

الحب والبغض Adi et Amo هاتان الكلمتان هما جماع الآداب البدوية ؛ لأنه إذا كان العربى - كما رأينا - صديقاً حميما لخلانه ، فانه عدو لدود لا يهدأ له بال إذا عادى ؛ تضطرم نفسه وتتأجج بنيران الحقد والبغضاء ، وكانوا يعدون من لا يرد اللطمة التى أصابته جباناً ، ويستحيل على الرجل الكريم المحتد منهم أن ينسى ضرراً لحقه حتى يثأر لنفسه وينتقم لها ، وأنشد بعض الأعراب ، - وقد آلمه أن يغتصب المغير إبله - أبياتاً يقول فيها عن عشيرته التى لم تساعده فى استرجاعها :

لكنَّ قومى وإن كانوا ذوى عددٍ
ليسُوا من الشرِّ فى شىءٍ وإنْ هانا
يَجزونَ من ظُلمِ أهلِ الظلمِ مغفِرةً
ومن إساءةِ أهلِ السُّوءِ إحسانا (٣)

والبيت الثانى الذى قد يسرف فى مدح من يتصف به الاخلاقيون المسيحيون والمسلمون ألحقَ بمن قيل فيهم عاراً لا تمحى آثاره ، وإن المنهج البيِّن فى معاملة الأعداء ليتضح على أتمه من الأبيات التالية :

إذا المرءُ أوْلاكَ الهوانَ فأوْلِهِ
هوَاناً وإن كانتْ قريباً أواصِرُهْ
فانْ أنتَ لمْ تقدِرْ على أن تُهينَهُ
فذَرْهُ إلى اليَوْمِ الذى أنتَ قادِرُهْ

---

(١) هو حطان بن المعلى (المترجم)

(٢) Charles Lyall : Anc. Arabian Poetry, P. 28. والحماسة ص ١٤٢

(٣) الحماسة ص ٧

وقارِبْ إذا مَا لمْ تَكنْ لكَ حِيلة
وصَمِّمْ إذا أيقنتَ أنكَ عَاقِرُهْ (١)

وفوق كل هذا فان الدم يدعو الدم ، وهذا الارغام يظل يلاحق ضمير العربى الوثنى ؛ وكان الانتقام عندهم ضرورة طبيعية اذا لم تجب حرمتهم النوم والشهية والصحة ، كما كان ظمأ محرقاً لايطفىء أواره أو يبل لهيبه سوى الدم ، ومرضاً من أمراض الشرف يمكن تسميته بالجنون ، وإن كان قليلا ما يمنع الرجل من أداء عمله فى هدوء وتبصر . وكانوا يثأرون من القاتل إن أمكن أو أحد أقاربه وأبناء عشيرته . وإذ ذاك تستقر الأمور فى نصابها ويندمل الجرح ، إلا أن هناك حالات كان الانتقام فيها فاتحة قتال دموى دائم ، تشتبك فيه القبيلة بأجمعها صغيرها وكبيرها ، كما حدث ذلك فى مقتل كليب الذى أدى إلى حرب زبون ظلت الرماح فيها مشتجرة زهاء أربعين عاما بين قبيلتى بكر وتغلب ، ويقبل أقرب أقرباء القتيل الدية كفدية له وتدفع عادة جمالا وهى تعد مسكوكات الاقليم ، وان قبولهم ذلك ليوحى إليهم دائماً أنهم فضلوا اللبن (النياق) وآثروه على الدم (٢) ، وان الشعور العربى الحق ليشرئب من خلال هذا البيت الذى يقول فيه الشاعر :

سأغسل عنى العار بالسيف جالباً على قضاء الله ماكان جالبا (٣)

وكانوا يعتقدون أن روح القتيل تظل شاخصة على قبره وتسمى « الهامة » أو الصدى ، وتصيح : « اسقونى ، اسقونى » حتى يؤخذ لها الثأر ممن اعتدى على صاحبها ، ولكن الأفكار الوثنية عن الانتقام كانت مرتبطة بالماضى أكثر من ارتباطها بالمستقبل ولم يكونوا يحسبون للحياة الأخرى قيمة كبرى أو لم يكونوا يعلقون عليها أية أهمية بجانب الذكريات المتأصلة عن الحب الأبوى ، والشفقة البنوية وأخوة السلاح .

ومع أن النفس تستهجن هذه الطريقة المتبعة فى الانتقام والأخذ بالثأر إلا أن مغبتها إيجابية فى صد أولئك العابثين الذين لولا تلك الخطة — لأطلقوا لغرائزهم المجرمة العنان ، ولم يكبحوا لهاجماحا ، إذ لايخشون إذ ذاك رادعاً أو إلا ، ولا يصدهم إرهاب ،

(١) الحماسة ٣٢١
(٢) راجع ما كتبه Ruckert فى ترجمته للحماسة ج ١ ص ٦٦ وما يليها
(٣) الحماسة ٢٠

أما من وجهة نظرنا نحن فان قيمة هذا الأمر لا تهمنا من حيث هو أحد الأسس الأولية فى إقامة دعائم صرح المجتمع العربى بقدر ما تهمنا من أنه يكوّن عنصرا من عناصر الحياة العربية والأدب العربى ، ولذلك فقد اخترت من كتاب الأغانى قصة تنعكس فيها هذه الصور با كملها ، تلك هى قصة قيس بن الخطيم وكيف انتقم ممن اغتالوا أباه وجده (١) .

* * *

والقصائد التى يرد فيها ذكر الانتقام والأخذ بالثأر للدم المهراق تكشف القناع عن كل ما هو مستحسن ومستهجن فى العربى الوثنى ، فنجده من ناحية يصور لنا شجاعته وعزمه واحتقاره للموت وخوفه من العار وتبجيله الموتى واحترامه إياهم وعطفه الجدّى على ذوى قرباه ومن كانوا من لحمه ودمه ، ومن ناحية أخرى نجده يصور نفسه المضطغنة ، وقسوته وغدره ، وضراوته فى تعقب القتلة ، وإن القصيدة التى تجسم لنا هذه الصفات كلها هى القصيدة المنسوبة إلى « تأبط شرًا » ، وإن كان البعض يزعم أن صاحبها « خلف الأحمر » المنشىء المعروف لقطعة الشنفرى ، والمقلد البارع الباهر للشعراء القدامى

(يتبع) حسن حبشي

(١) لم نشأ أن نذكر القصة كما ذكرها الأستاذ نيكلسون لطولها ، ويمكن للقارىء العربى الرجوع اليها فى الأغاني ج ٢ ص ١٦٠ أما عن عادات البدو فيمكنه مراجعة ما كتبه بيركهادت Burckhardt فى كتابه: Notes on the Bedowins and Wahàbys (London 1831) Vol. I, P. 160 sqq & 329 sqq.

شاعر الاسلام محمد عاكف *

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٤ —

نشر محمد عاكف شعره فى سبعة أجزاء صغار كلها تحمل اسم « صفحات » ولكل جزء عنوان خاص ماعدا الجزء الأول وهى : —

١ — الجزء الأول وقد وضع عليه بعد العنوان العام : « صفحات » هذا الاسم « برنجى كتاب » أى الكتاب الأول .

وفى هذا الجزء أربع وثلاثون منظومة فى موضوعات شتى . ويتبين فيها كلف الشاعر بالتخلل فى طبقات الأمة ، ووصف المعيشة العادية ، والواقعات المألوفة يكشفها عما وراءها من عظات ، وينطقها بما استسر على الناس من عبر . وحسب القارىء أن يرجع إلى المنظومات : قفة وحصير ، والحانة ، وقهوة المحلة ، ليرى قدرة الشاعر على تصوير الحياة وجلائلها ودقائقها فى بيان يجمع يسر النثر إلى جمال الشعر .

وقد عرف قراء الرسالة من منظومات هذا الجزء اثنتين : سيفى بابا ، والزامر الأعمى .

٢ — والجزء الثانى سماه الشاعر : « فى كرسى السليمانية » (سليمانية كرسيسنده) . وهو منظومة مزدوجة فيها زهاء ألف بيت يصف فيها جامع السلطان سليمان القانونى أعظم مساجد استانبول ، ويتحدث على لسان واعظ سياح اعتلى كرسى الوعظ فى هذا المسجد واصفاً ما شهده فى سياحته من أحوال المسلمين ويبين أدواءهم وأدويتهم . وقد اختار لهذا الحديث السائح المعروف عبد الرشيد ابراهيم الذى يطوف فى أرجاء العالم منذ ستين سنة أو أكثر ، والذى قدم مصر مرات آخرها قدومه قبل سنتين فى طريقه إلى اليابان ؛ وهو اليوم نزيل طوكيو ، فعليه منا تحية وسلام .

٣ — والجزء الثالث أصوات الحق (حقك سسلرى) وهو منظومات فى معانى آيات قرآنية مثل قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء الخ . تلك بيوتهم خاوية بما ظلموا . كنتم خير أمة أخرجت للناس .

٤ — والجزء الرابع فى كرسى الفاتح (فاتح كرسيسنده) ، منظومة فى نحو ثمانمائة بيت يبدؤها الشاعر بوصف مسجد الفاتح وصفا يذكر القارىء بالشاعر الفرنسى فكتور هيجو فى رواية Notre Dame de Paris ثم تكلم على لسان واعظ فى عقائد المسلمين وأعمالهم كلاما يتجلى فيه سموّ الفكر ، وصفاء القلب ، والبصر بأسرار الدين ، والحزن لما أصاب المسلمين .

٥ — والخامس «خاطرات» (خاطره لر) . وفيه منظومات فى معانى آيات من القرآن ، وأخرى فى موضوعات مختلفة ، كقصيدته فى وصف آثار الأقصر التى أهداها إلى الأمير عباس حليم باشا رحمه الله ، ومنظومة « خواطر برلين » وهى طويلة تنتظم زهاء أربعمائة بيت . ويعرف قراء الرسالة من هذا الجزء القصيدة الخالدة « من نجد إلى المدينة » .

٦ — عاصم : قصة طويلة منظومة فى نحو ألف ومائتى بيت بطلها شاب من الذين جاهدوا فى الحرب الكبرى ، اسمه عاصم . وهو ابن كوسه امام تلميذ طاهر افندى والد الشاعر . وقد أبان فيها عن حال تركيا القديمة والحديثة ، ووصف كثيرا من الأمور الأخلاقية والاجتماعية وصفا بليغا دقيقا يتناول أشد الموضوعات استعصاء على النظم فيعرضها فى أسلوب مطبوع بيّن لا أثر فيه للتكلف والجهد . وكان الشاعر يوصى بقراءة هذه القصة لما تضمنته من عبر ولما قاربت لغتها ، اللغة العامية فى تركيا

٧ — الظلال (كوركه لر) هى الجزء الأخير الذى نشره الشاعر قبل وفاته بعامين ، وقد نظم بعض منظوماته فى استانبول وبعضها فى انقرة ومعظمها فى حلوان . ومنها قصيدة فى الآثار المصرية سماها « مع فرعون وجها لوجه » وأهداها إلى الأميرة خديجة حليم . ومنها قصيدة نشرت ترجمتها فى الرسالة بعنوان الفنان يصف فيها صديقه الشريف محيي الدين أكبر الموسيقيين

* حالت شواغل دون تتابع هذه المقالات فمعذرة

المسلمين ومفخرة العرب فى الموسيق وهو نزيل بغداد اليوم

وقد أهدى الشاعر الجزء الأول من الصفحات الى أحد تلاميذه (محمد على) ، والثانى الى صديقه فطين خوجه ، والرابع الى صديقه الشاعر مدحت جمال ، والسادس الى صديقه فؤاد شمس، والآخر الى الشريف محيي الدين

وقد صدّر الشاعر الجزء الأول من صفحاته بخمسة أبيات لا عنوان لها ، وافتتح الجزء الأخير بستة أبيات عنوانها خسران. ويرى القارىء فى ترجمة هاتين القطعتين كيف كان فكر الشاعر فى أول شعره وآخره :

— ١ —

سلنى أيها القارىء الحبيب أنبئك . سلنى ماهذه الأشعار الماثلة أمامك ؟ انها أكداس من الكلم لا براعة فيها إلا الأخلاص . لست أعرف التصنع لأنى لست صانعا . يقال ان الشعر دمع العين . لا علم لى بهذا ، ولكنى أرى أن كل ما أسطر هو بكاء العجز . أنا أبكى فلا أستطيع أن أبكى ، وأشعر فلا أستطيع أن أبين. وان الشقاء ان يحرم القلب الشاعر لسانا : اقرأ ان كنت تنشد قلبا حساسا ـ اقرأ فما كتبت كلمتين الا سطرت هذا القلب

— ٢ —

وكتب على الجزء الأخير الذى نشره قبل وفاته بعامين أبياتا نظمها فى استانبول قبل قدومه الى مصر :

ما كنت لأقف معقول اللسان أقلب الطرف فيما حولى . لم يكن لى بد أن أنوح لأوقظ الاسلام . انما أريد أن تفور القلوب المرهفة الحس ، الراسخة الايمان ؛ وأما التفكير الطويل فقد هجرته منذ أمد بعيد . انى أنوح ولكن لمن ؟ أين أهل الدار ؟ أقلب طرفى فلا أظفر الا بأمم نائمة

لقد خنقت صرخاتى وحملت نعشها ثم مزقتها تمزيقا ودفنتها فى شعرى وتركتها

وهأنذا أسيل أنينى الذى هم بأن يعم الأودية كالسيل المنهمر ، أسيله فى غير هدير كالدموع الخفية . لا أجد فى هذه القبة الصماء لآلامى أثرا فليئن الخسران الذى فى « صفحاتى » دون حس ولا ركز .

عبد الوهاب عزام

فى حفلة تأبين الزهاوى

مضى الطائر الصداح

للأستاذ على الجارم بك

مندوب مصر فى حفلة تأبين الزهاوى ببغداد

جفا الروض مغبر الاسارير ماطره ... وغادره قفر الخمائل طائره
ذوى نبته بعد البشاشة وارتمت ... مصوحة أثماره وأزاهره
تلفت : أين الروض ، أين مكانه ... وأين مجاليه ، وأين بواكره
وأين الذى لم يطرق الأذن مثله ... إذا صدحت فوق الغصون مزاهره
حمائم ألهاها النعيم عن البكا ... وأذهلها عن عابس العيش ناضره
اذا أرسلت ألحانها فى خميلة ... توثب زهر الروض واهتز عاطره
لها صوت داود وحسن رنينه ... اذا ما علت متن النسيم مزامره
اذا بدأت أشجاك اول صوتها ... وان سكتت أعيا بيانك آخره
وان هتفت فى الدوح مال كأنما ... يسايرها فى لحنها وتسايره
تحدت فنون الموصلى وطوحت ... بأنفس ما ضمت عليه بناصره
أولئك أوتار الاله وصنعه ... اذا عزفت فليسكت العود واتره
ألمت بأسرار النفوس فترجمت ... كما فسر الحلم المحجب عابره
يصيخ اليها أسود الليل باسما ... فتفتر عن زهر النجوم مشافره
يود لو أن الغيد ضمت شعورها ... إلى شعره الداجى فطالت غدائره
ويرجو لو أن الفجر عوق خطوه ... وطاش به نائى الطريق وجائره
وزلت بشطآن المجرة رجله ... فطوحه فى غمرة اليم زاخره

* * *

سل الروض ان أصغت اليك رسومه ... متى روعت أطلاؤه وجآذره
وأين الغدير العذب طاب وروده ... لذى الغلة الصادى وطابت مصادره
اذا فاض بين الزهر تحسب أنه ... يمانى برد أذهل التجر ناشره
تأزر من أثوابه الروض واكتسى ... فرقت حواشيه وطالت مآزره
تدور به جم البلابل مطرقا ... ولم تدر أن الدهر دارت دوائره
وتصغى فلا يجتاز سمعك نغمة ... سوى أنة يلهى بها الحزن قاهره
وتدعو فلا تلقى مجيبا سوى النوى ... تطارح مطوى الأسى وتحاوره
وقفت به والقلب يحبس وجده ... فيطغى ودمع العين ينهل بادره
وما وقفتى بين الرياض وقد عفت ... سوى حاجة يقضى بها الحق ناذره

أرى ما أرى إلا غبارا أثاره … خميس الليالى حينما ثار ثائره

* * *

مضى الطائر الصداح فالأفق موحش … حزين النواحى عابس الوجه باسره
وأودى « الزهاوى » ، فانتهى ملعب النهى … وأطفئت الأنوار وانفض سامره
أقام على رغم النبوغ بحفرة … وسارت على رغم المنون سوائره
وغادر عرش اللوذعية ربه … وخلى ندىّ العبقرية شاعره
دعوا ذكر إعجاز البيان وسره … فقد غاب عنه طيلة الدهر ساحره
له خاطر لو سابق البرق فى الدجى … لجلى على برق السموات خاطره
تملك حر الشعر سن يراعه … فياعجبا إن حرر الشعر آسره
تمنى العذارى لو تقلدن دره … ورفت على أجيادهن جواهره
ويزهى العيون الدعج إن سوادها … شبيه بما ضمت عليه محابره
وما جاشت الصهباء إلا لأنها … وقد صفقوا مشمولها لا تناظره
تمر به مرا فيسبيك بعضه … وتقرؤه أخرى فيسبيك سائره
ترى فيه هذا الكون صورة حاذق … أحاطت بأسرار الحياة بصائره
وتلمح فيه الرأى فى بعد غوره … كما غاص تحت الماء للدر ذاخره
وتلقى به الآذىّ فى ثورانه … إذا عقله الجبار مارت موائره

* * *

له قلم لو لامس الطرس مرة … تدانى له صعب القريض ونافره
لقد كان منظار النفوس فلم يجل … بنفس هوى إلا وطرفك ناظره
يلوح بعيد الرأى خلف زجاجه … وحاضر تاريخ الحياة وغابره
براه إله الخلق عزما وجرأة … تهاب الرواسى حده وتحاذره
وصوره عضبا تفر لهوله … ذئاب الدنايا شرداً وهو شاهره
كأن عصا موسى أعيدت بكفه … يصاول من يرمى بها ويغاوره

* * *

يقول جريئا ما يريد وربما … يقول الفتى ما لم ترده سرائره
وكم من فتى يقضى بنفسين عيشه … مظاهره نفس ، ونفس مخابره
تراه من النساك فى خلواتهم … وفى الحان قد نمت عليه ستائره
لسان كما طال الجرير مسبح … رياء ومن خلف اللسان جرائره
إذا لم يكن فى الحرب قلبك باترا … فماذا يفيد المرء فى الحرب باتره

* * *

حنانا له كيف استقرت به النوى … وكيف ثوى بعد التلفت حائره
وهل بعد ليل فى الحياة مؤرق … كثير التظنى أبصر الصبح ساهره

* * *

شققت إليك الطرق والقلب خافق … تراوحه آلامه وتباكره
تذكر آلافا ألموا فودعوا … كطيف خيال أرق الصب زائره
ونحن حياة والحياة إلى مدى … ولولا المنى لم يبذر الحب باذره
وأن المهود الزهر — لو علم الفتى … وفكر فى غايتهن — مقابره
سموت إلى بغداد والشوق نحوها … يساورنى حينا وحينا أساوره
كلانا نأى عن أهله وعشيره … ليلقاه فيها أهله وعشائره
حبيب إلى نفسى العراق وأهله … وسالفه الزاهى المجيد وحاضره
ديار بها الاسلام أرسل ضوءه … فسار مسير الشمس فى الأفق سائره
ومدت بها الآداب ظلا على الورى … تساوت به آصاله وهواجره
تجلى بها عهد الرشيد وعزه … وزاهر ملك الفاتحين وباهره
إذا شئت مجد العرب فى عنفوانه … فهذى مغانيه ، وهذى منائره
أطلت على الدنيا فأبصرت الهدى … كما لمعت فى جنح ليل زواهره

* * *

تفاخر بالغازى الذى سار ذكره … ودوّت بآفاق البلاد مفاخره
هو الملك أمضى من شبا السيف عزمه … وأغزر من ماء السحائب هامره
نماه بناة المجد من آل هاشم … فجلت مراميه وطابت عناصره
أعاد إلى عهد البيان شبابه … فهب فتيا ينفض الترب داثره
يريك به المنصور مأثور حزمه … وتذكرك المهدى فيه مآثره
ذكرنا اسمه طول الطريق فذللت … مصاعب متنه وضاءت دياجره

* * *

جميل ! نداء من أخ يقدر النهى … وإن لم يمتع باجتلائك ناظره
عرفتك فى آثارك الغر مثلما … تنبىء عن وجه الصباح بشائره
عرفت « جميلا » فى جميل بيانه … يشاطرنى وجدانه وأشاطره
تجاورنى فى دوحة النيل روحه … وروحى بأدواح العراق تجاوره
إذا اجتمع القلبان فالكون كله … مكان ، وإن شقت وطالت معابره
لنا نسب فى المجد يجمع بيننا … تعالت أواسيه وشدت أواصره
ألسنا حماة القول فى كل محفل … تتيه بنا فى كل أرض منابره
صببت عليك الدمع سحا ومدمعى … عزيز ولكن أجود الدر نادره
وأرسلت فيك الشعر لوعة موجع … تئن قوافيه وتبكى صدائره
عليك سلام الله نورا ورحمة … وغادتك من سيب الاله مواطره

علي الجارم

لبيك نابغة العراق

للأستاذ بشاره الخورى
مندوب لبنان فى حفلة التأبين

قولى لشمسك لا تغيبى وتكبدى فلك القلوب
بغداد يا وطن الجهاد وموضع الأدب الخصيب
غناك دجلة والفرا ت قصائد الزمن العجيب
رقصت قوافيها على نغم البشائر والحروب
أعراس دارا من مقا طعها وخيبة سنحريب (١)
حتى إذا طلع الرشيد وماج فى الأفق الرحيب
صهر القرون وصاغها ناجا لمفرقك الحبيب

بغداد يا شغف الجمال وملعب الغزل الطروب
بنت المكارم للعرو بة فيك جامعة القلوب
بيت من الأخلاق ضا قت عنه أخلاق الشعوب
وسع الديانات السما ح وضم أشتات الندوب
زفرات أحمد فى رسالته وآلام الصليب

بغداد ما حمل السرى منى سوى شبح مريب
جفلت له الصحراء والتفت الكثيب إلى الكثيب
وتنصتت زمر الجناد ب من فويهات الثقوب
يتساءلون وقد رأوا قيس الملوح فى شحوبى
والتمتمات على الشفاه مضرجات بالنسيب
تبكى لها قبل الصبا ويذوب فيها كل طيب
يتساءلون من الفتى السعرى فى الزى الغريب
صحراء يا بنت السماء البكر والوحى الخصيب
أنا لو ذكرت ذكرت أحلامى وأنغامى وكوبى
إحدى الشموع الذائبا ت أمام هيكلك الرهيب
أنا دمعة الأدب الحزين رسالة الألم المذيب
من قلب لبنان الكئيب لقلب بغداد الكئيب

لبيك نابغة العرا ق وحجة الشرق القريب
لبيك معجزة البيا ن الحر والقلم الخضيب
حجاج روحك وهى مل‍ء الكون تقذف باللهيب
تخبو الشموس وتنطفى وتظل نامية الشبوب
حلم سفكت دم الشباب فدى لمبسمه الشنيب
حب الخلود وكم أريق عليه من جفن سكيب
لولاه لم تلد الطروس الحمر اكليل الأديب

آليت اقتحم الجحيم على جواد من ذنوبى (١)
فأغوص فى الأبدية الخر ساء والأزل القطوب
أتلمس الأشباح والأر واح من خلل الحقوب
حتى إذا انكشف الجحيم يئز بالضرم الصخوب
سكنت ثائرة الضلو ع وكاد يصرعنى وجيبى
وسألت عن « دانتى » وعن شيخ المعرة ذى الريوب
أحقيقة عرفا لظى أم وصف مبتدع نجيب
« لجميل ليلى » (٢) فيه ما شاء التفنن من ضروب
صور ملونة الجنا ح على مخيلة خلوب
آليت اقتحم الجحيم على جواد من ذنوبى
آليت . . . لكنى ارعويت وقلت يا نفسى اهدئى بى
مهما سما عقل الحكيم يزل عن حجب الغيوب

يا فيلسوف العرب والأيام كالحة النيوب
هلا ذكرت لنا العراق ومجده غابره الذهيب (٣)
فلك ترصع بالحكيم وبالأديب وبالطبيب
يفتر عن مثل ابن سينا والنواسى الأريب
إرث وهبت له الصبا وسقيته دمع المشيب
ونشرت أنجمه على بغداد من كفن المغيب
شيخ القريض أبا الرصين الجزل والمرح اللعوب
ما زلت ألمحها على لبنان ظافرة الوثوب
من معصم النبع الدفيق لمعطف الغصن الرطيب
وأخو الوفا لبنان ير فل منه فى الثوب القشيب
هو والعراق الحر مهد هوى وأيكة عندليب
جاران من مزن السما ء ووردتان على قضيب

أسد العراق وما الرياح الهوج طاغية الهبوب
أمضى وأنفذ منك إذ تثبين للأمر العصيب
قلمت أظفار الزما ن ورعت داهية الخطوب
وبنيت بالقلم الحليم وبالمهندة الغضوب
ونشدت للعرش المفدى آية الفتح القريب
عرش « لغازى » المكرما ت لمنتهى حسب الحسيب
نسب تنقل فى العلى بين الأشعة والطيوب
عرش الملوك من السلا ح وعرشه فلذ القلوب

بشاره الخورى

(١) دارا أحد ملوك الفرس الفاتحين وسنحريب ملك آشور الذي فشل تحت أسوار أورشليم

(١) الماع الى قصيدة الزهاوى (ثورة فى الجحيم)
(٢) « جميل ليلى » هو جميل الزهاوى وقد أكثر من ذكر ليلى فى شعره حتى أصبحت منه كليلى العامرية من قيس
(٣) الذهيب المذهب .

الفنون

الفن المصرى

٣ – التصوير والحفر

للدكتور أحمد موسى

يلاحظ الدارس للفن، المحيط بأسراره بعض الاحاطة، أن الفنان المصرى عمل مصوراته ومحفوراته البارزة والمنخفضة، مقيدة بقيود ظلت طوال أيام الحضارة المصرية كلها، تلخصت فى نظرته للأجسام، لا بحسب مظهرها الطبيعى أمامه؛ بل بحسب وضعها الأصم الذى ظن أنه يجب أن تظهر به فى تصاويره وعلى لوحاته. وقد ظن بعض الناس أن هذا متعمد بقصد خلق روح فنية معينة، وظن غيرهم أن هذا نوع من التشويه الفنى كما أسموه، وهذا فضلا عن كونه محض افتراء، فانه بعيد عن الواقع وعن التقدير العلمى بعداً شاسعاً. فالفنان المصرى لم يتعمد شيئاً معيناً وإنما كان مقيداً بقيود طبيعية، دفعته إلى هذا الوضع وإلى هذا المنهج دفعاً لم يكن له فيه أى قصد، بل ولم يكن ليتخلص منه بأى وسيلة. ولذلك كان إذا صور جماعة من الناس أو الحيوان أو المواد أو منها جميعاً تصويراً إنشائياً، تراه يضعها بحيث يكون بعضها خلف بعض أو إلى جانبه، من غير مراعاة الوضع الطبيعى لها، الذى كانت تظهر به أمام عينيه، وكان هذا هو الحال أيضاً عند ما أراد التصرف بعض الشىء – مثلا – فى تصوير مائدة عليها أدوات أو مواد. فتراه يصورها قطعة قطعة، كما لو كانت متفرقة غير مجتمعة على مائدة واحدة، ذلك لأنه لم يكن يعرف بعد أصول تصوير المجسمات. وعلاقة الحجم والبعد بالتصوير المنظور « Perspective »، وكان هذا سبباً جوهرياً فى ظهور مختلف المصورات التى مثلت شئون حياته الزراعية والصناعية والدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها، كما لو كانت متجاورة بالرغم من أن بعضها كان يجب أن يخفى البعض الآخر بحسب وضعه وراءها

نعم: شاهدنا فى بعض المصورات قوة ملاحظة الفنان بجعله الشىء الموضوع خلف شىء آخر غير ظاهر، ولكن هذا كان نادر الحصول بحيث لا يمكننا الأخذ به كقاعدة عامة لروح الفن المصرى فى التصوير والحفر

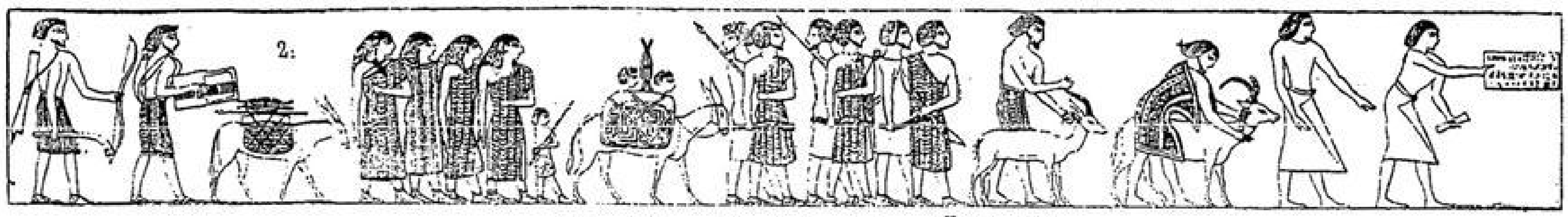
والجدير بالملاحظة والمعرفة، هو أن نعلم أن نظرة الفنان لجماعة من الناس بينها شخصية بارزة، دفعته حيناً إلى إظهار هذه الشخصية بمقياس أكبر من المقياس الذى تقيده بتنفيذه فى مصوراته، غير ناظر إلى موقع هذه الشخصية من حيث البعد أو القرب منه، أو لوضعها بالنسبة لمجاوريها، فضلا عن نظرته إلى جسم الانسان على وجه الخصوص، كما لو كان شيئا ينظر إليه من وضعين مختلفين، فتراه – كما سبق التنويه بذلك فى المقال السابق – نظر إلى الرأس والبطن والساقين والقدمين من الجانب على حين نظر إلى العينين والكتفين والبطن من الأمام.

ويرى الزائر للمتحف المصرى أنموذجاً صادقاً لهذه الحالة إذا نظر إلى الصورة المحفورة على الخشب. التى تمثل الطحان واقفاً وجالساً، (قطعة رقم ٨٨ – دولاب ب – الصالة ا – بالدور الأرضى)، والتى تبين بوضوح الدقة العظيمة فى تصوير الوجه من الجانب

بدأ المصريون بهذه الدقة منذ عهد الأسرة الخامسة. واستمر التقدم حتى بلغ الغاية فى منتصف عهد الأسرة الثامنة عشرة (حوالى ١٤٥٠ ق. م.) وأعقب ذلك التدهور والانحطاط

وإذا قدّر للقارىء المصرى أن يعنى بتراث حضارته القديمة واحتمل مشقة السفر إلى الوجه القبلى بضع ساعات حتى يصل إلى الشيخ عبد القرنة (بطيبة بحرى راميسيوم). وإلى تل العمارنة القريبة من دير مواس، فانه يستطيع أن يرى أروع تصوير وأدق تمثيل، فيشاهد الحيوانات مرسومة من الجانب بمنتهى ما يمكن من الدقة، فالتناسب بالغ منتهاه، والحياة نابضة فيه، حتى ليخيل إليك أنها صور فوتوغرافية لشدة صدق محاكاتها

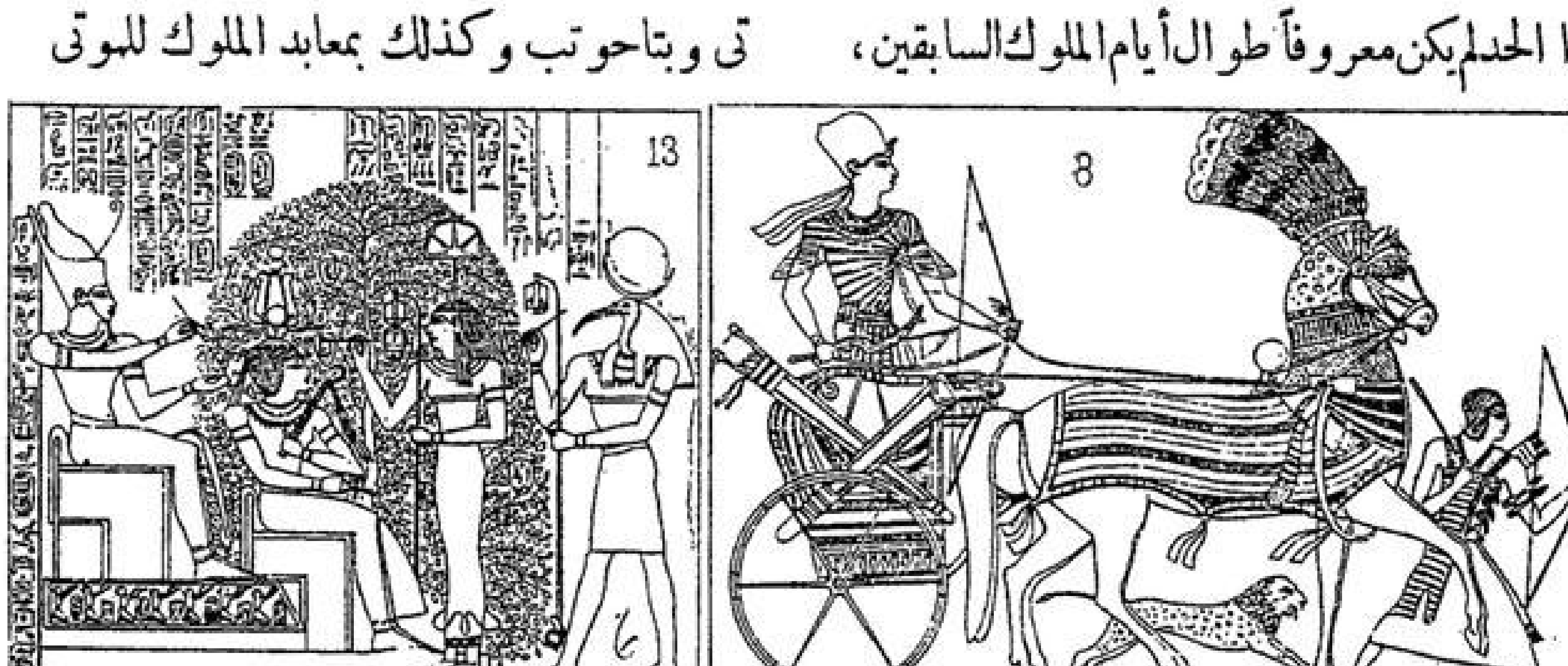
أما الانشاء الكلى لفن التصوير ، فقد كان ثابتا على مر القرون ، إلا فى بعض أحوال معينة ، فترى معظم المصورات فى عهد المملكة القديمة (٣٢٠٠ - ٢٢٧٠ ق . م .) تمثل ممارسة الناس لأعمالهم اليومية فى الحقل والبيت بشكل رائع جميل ، فضلا عما



(ش ١) آشوريون متجهون إلى ملك مصر لتقديم ولائهم

يمكن استفادته من هذه المصورات فى مختلف إنشائها وأزمانها لمعرفة مدى دقة ملاحظتهم وحضارتهم

وتَغَيَّرَ الانشاء الموضوعى بتغير العصر ؛ فترى فى عهد المملكة الوسطى (٢١٩٠ - ١٧٠٠ ق . م .) أن المصورات شملت مشاهدات فى قصور الملوك والأمراء ، كما أظهرت لنا طرائف أوضحت كيفية دفن الموتى وما إليها ، على أن هذا الاتجاه الاجتماعى الجديد نما وازدهر على وجه الخصوص فى عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ - ١٣٥٠ ق . م .) ، عندما بلغت مصر شأواً عظيما وفتحت بلداناً مجاورة ، الأمر الذى ترتب عليه اتساع الأفق الفنى أمام الفنان المصرى ، وشعر الملوك والأمراء باهمية الفن حتى لتراهم فى عهد أمينوفيس الرابع (١٣٧٥ - ١٣٥٨) قد اتصل الفنانون بهم ، واستطاع الفنان تصوير الحياة الخاصة للعائلة المالكة وللحاشية ، وهذا شيء جديد فى ذاته ، إذ أن اتصال مصور بالعائلة المالكة إلى هذا الحد لم يكن معروفاً طوال أيام الملوك السابقين ،



(ش ٢) إلى اليمين ، رمسيس الثانى فى عربته الحربية إلى اليسار ، بعض الآلهة فى حضرة المليك

لأننا لم نعثر ولا ينتظر أن نعثر على مصورات تؤيد غير ذلك

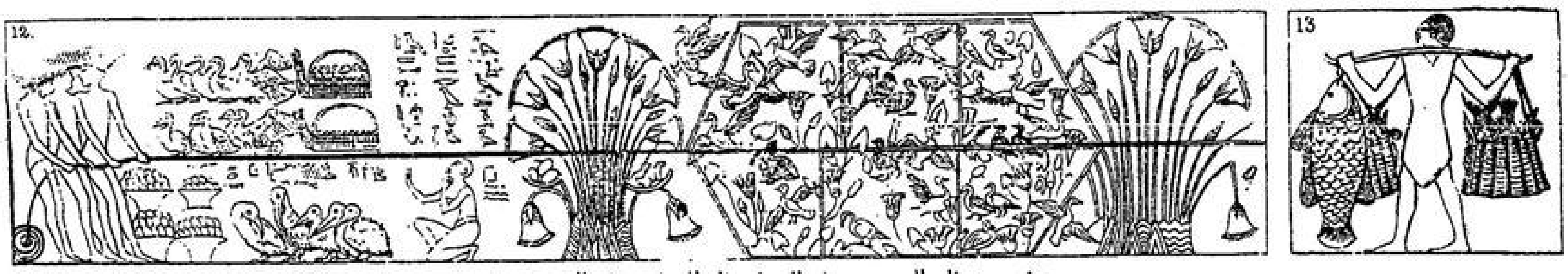
أما فى عصر الأسرة التاسعة عشرة (١٣٥٠ - ١٢٠٠ ق . م .) ، وكذلك فى عهد رمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٧) من الأسرة العشرين ، فقد كلف الفنانون بتصوير المناظر الحربية ، وتسجيل انتصارات المصريين تصويرا دقيقاً ، إذ بهذا يمكن إيقاظ روح الشعب للتعلق بحب الوطن والتفانى فى الاخلاص له ، كما يسجل المواقع والمذابح الحربية التى بدئ بها فى عصر الأسرة الثامنة عشرة ، والتى لاتزال شعوب الأرض المتحضرة فى أيامنا هذه ناسجة على منوالها . وفى المتحف المصرى قطعة مقلدة من الأصل المحفوظ بمتحف فلورنسا ، تعد من أروع ما يستطيع الانسان أن يشاهده لمثل هذه الحالة ، تمثل عربة توتموزيس الرابع (١٤٢٠ - ١٤١١) يجدها الزائر تحت رقم ٣٠٠٠ داخل الصندوق حرف ط بالجناح الشرقى بالدرر الأعلى

وبدأ فن التصوير ينحط عند انتهاء عصر المملكة الحديثة ، فتراه قد عاد من حيث الضعف الفنى إلى عهد الأسرات الأولى ، بحيث أصبح كل ما صور بعد هذا العصر . لايخرج عن تقليد ضعيف لما سبق تصويره

أما النحت التصويرى فكانت أزهى عصوره عند الأسرة الخامسة فى المملكة القديمة ، وهذا يتفق مع عصر النحت الكامل ، وأحسن نماذجه وأروعها يمكن مشاهدتها بسقارة خصوصاً بمصطبة تى وبتاحوتب وكذلك بمعابد الملوك للموتى

على أنه يجب التنويه بأن الفن قد انحط فى عهد المملكة الوسطى ، وظل كذلك حتى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، حيث ترى فى معابد الأقصر والدير البحرى ومقابر الشيخ عبد القرنة دلائل التقدم

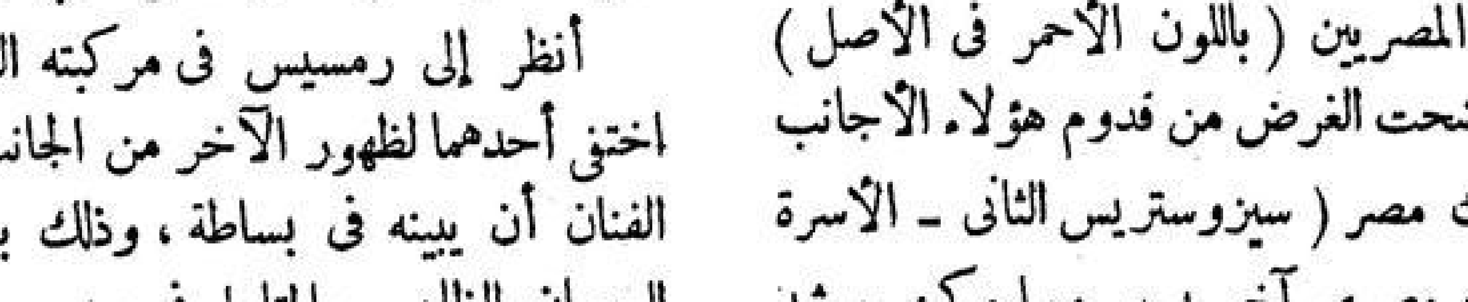
أما فى عهد البطالسة (٣٣٢ وما بعدها) فقد تقهقر الفن ، وأصبح التناسب ضعيفا بين المسافات التى كانت تخصص للحفر والتصوير وبين المساحات التى تركت بدونه ، كما أصبح توزيع المصورات على المساحات رديئا ، وخلت هى نفسها من كل جمال



(ش ٣) إلى اليمين ، صياد السمك إلى اليسار صياد الطيور

وانسجام ، وطغى عليها ازدحام أبعدها عن الذوق الفنى . والمشاهد لتراث هذا العهد يلاحظ التضخم باديا على المنحوتات الممثلة لجسم الانسان

ولعلنا بمشاهدة بعض المصورات التى أمكن الحصول عليها لتناسب المقال هنا ، يمكننا أن نفهم جيداً المدى الذى وصل إليه المصريون فى فن التصوير والنحت التصويرى : فترى فى الصورة - ١ - المنقولة عن حائط بمقابر بنى حسن ، منظراً رائعاً لجماعة من الآشوريين (الساميين) وهم سائرون وراء اثنين من المصريين . ومتجهون جميعاً فى طريقهم إلى مصر . فترى على اليمين أحد الموظفين المصريين (باللون الأحمر فى الأصل) يرفع بيمينه لوحة أوضحت الغرض من قدوم هؤلاء الأجانب وهو تقديم الولاء لملك مصر (سيزوستريس الثانى - الأسرة الثانية عشرة) ، ويعقبه مصرى آخر يسير وراءه كمن يرشد الجماعة إلى خط السير ؛ ثم ترى الثالث وهو يسير ممسكا عنزا من أحد قرنيها بيده اليسرى ، والرابع ممسكا غزالا أحاط عنقه بحبل قبض عليه بيسراه ، على حين قبض على القرن بيمناه ،



(ش ٤) إلى اليمين ، عصر العنب فى الوسط ، حلب البقرة ، إلى اليسار الرضاعة

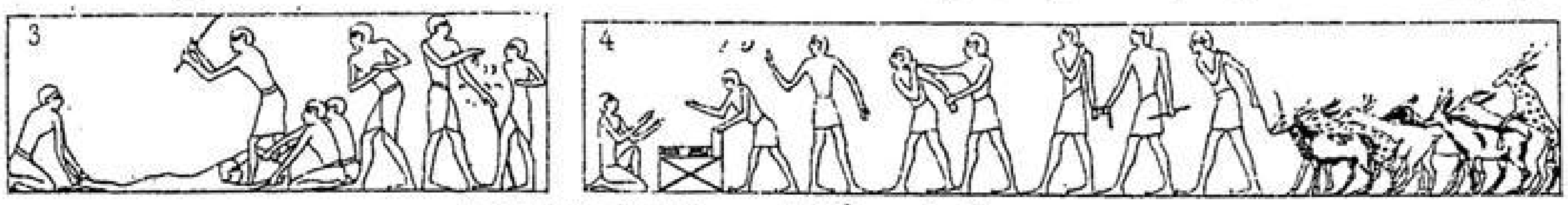
أحضراهما كعينة لحيوانات بلادهم ؛ وبعدئذ نرى أربعة رجال يسيرون فى نفس الاتجاه ، والأخير منهم يتجه برأسه إلى الوراء كما لو كان يتحدث إلى من خلفه ، يحمل كل منهم السهم والقوس

أما الاثنان وراءهما ، فأحدهما ينظر إليه والآخر يلاحظ الطفلين اللذين ركبا حماراً وقد قعدا داخل مخلاة أشبه بحاجز يقيهما شر السقوط . وخلف الحمار ولد تعقبه أربعة نساء تركن الشعر منسدلا إلى الكتفين ، وخلفهن حمار آخر محمل بالهدايا ، ووراءه رجل يعزف على آلة موسيقية آشورية ذات خمسة أوتار ، وآخر يحمل نشاباً بيسراه وعصا بيمناه استعداداً للطوارىء . وسار المصريون حفاة الأقدام ، على حين كان الآشوريون تلبس نساؤهم أحذية من الجلد ، ورجالهم يحتذون نوعاً من الصنادل فضلا عن إمكان تمييزهم بذقونهم الطويلة .

والصورة - ٢ - تشمل منظرين وجدا بأبى سنبل (القرية من الدر) الأيمن منهما يمثل رمسيس الثانى على مركبته الحربية التى انتصر بها فى حروبه الافريقية ، وهى فى شكلها الكلى واضحة التفاصيل ، قوية الاحراج ، تسجل الناحية الجديدة فى الاتجاه الفنى لاثبات الانتصارات ومظاهر الأبهة والعظمة كما سبق التنويه .

أنظر إلى رمسيس فى مركبته الرائعة يجرها حصانان وقد اختفى أحدهما لظهور الآخر من الجانب ، وتأمل كيف استطاع الفنان أن يبينه فى بساطة ، وذلك برسمه خطاً رفيعا موازيا للحصان الظاهر . والمتأمل فى صدر رمسيس يلاحظ الكتفين وقد ظهرا من تحت الملبس ، مما يدل على أنه كان من قماش رفيع شفاف ، كما يراه قابضا على القوس وعلى جزء من لجام الحصان بيده اليسرى ، وعلى سهم وسكين باليمنى ، أما الحصان فظهر رائعا كامل الزينة مغطى بغطاء جميل الزخرف ، وأسفل الحصان ترى أسداً سائراً مع اتجاه العربة الملكية ، نقش جلده يقع أشبه بتلك التى تراها على جلد النمر ، قصد به الرمز للعظمة

والقوة . يقول ديودور أحد مؤرخي القرن الأول قبل المسيح إن فرعون كان يركب عربته حافى القدمين ، ولذلك ترى على الكتف اليسرى لخادمه السائر أمام الحصانين وعلى يسارهما



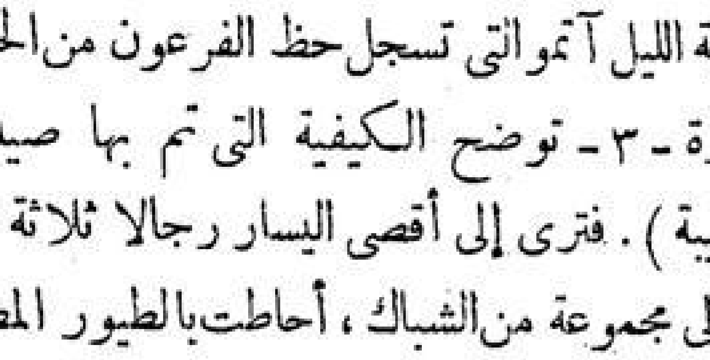
(ش ٥) إلى اليمين محاكمة اللصوص إلى اليسار تنفيذ العقوبة

كيسا خصص لوضع حذائه داخله حتى يستطيع بذلك لبس الحذاء بمجرد مغادرته العربة .

والمنظر الأيسر مأخوذ عن نظيره بمعبد سيتى الأول (ميمنونيوم) بأبى دوس (بالقرب من البلينا) يبين رمسيس الثانى (تولى الملك بعد سيتى الأول وأكمل بناء معبده) جالسا على العرش فى ظل شجرة ، وإلى اليمين ترى إله الكتابة والتحرير يسجل اسم رمسيس بقلمه على ثمار الشجرة ، والاله توت كاتب السماء ، وإلهة الليل آتمو التى تسجل حظ الفرعون من الخير والمتعة

والصورة - ٣ - توضح الكيفية التى تم بها صيد الطيور (وجدت بطيبة) . فترى إلى أقصى اليسار رجالا ثلاثة ، يجذبون حبلا ربط إلى مجموعة من الشباك ، أحاطت بالطيور المصادة بها . أنظر إلى الساقين الأولين على يمين وعلى يسار شجرة اللوتس ترى على زهرة الأولى منهما طيوراً صغيرة وعلى الأخرى بيضاً . وأما بقية التفاصيل فهى متروكة لدقة ملاحظة القارىء

والصورة - ٤ - هى لثلاث لوحات ، أولاها إلى اليمين تبين كيفية عصر العنب للحصول على النبيذ - والوسطى لطريقة حلب البقرة ، فترى القائم لعملية الحلب ومساعده الذى يحرص على منعها من التحرك - أما اليسرى فهى تريك منظراً جميلا ، استطاع الفنان أن يخرجه إخراجاً قوياً . أنظر إلى البقرة تثنى عنقها لمداعبة ابنتها العجلة الصغيرة يشار كما فى الرضاعة ولد صغير



(ش ٦) المصورون

والصورة - ٥ - ذات موضوع خلاب يهم المشتغلين بتاريخ القضاء ، فهى تمثل قاضياً جلس إلى منصة الحكم ، وأمامه رجل يقص حادث سرقة ووراءه آخر انتهى من تادية شهادته . بعدئذ ترى أحد رجال الأمن قابضاً على عنق لص وعلى يده ، ثم ترى آخر وقد كبل رجلا من يساره بالحديد ، وخلف الجميع رجل يجر الماعز المسروقة لاثبات الحادث

وإلى يسارها صورة تبين كيفية توقيع العقوبة بالجلد ، وذلك بطرح المجرم أرضاً ، وضربه على الظهر بعصا ، وإذا نظرت إلى أقصى اليسار ترى رجلا ممسكا بقدمى الجانى ، أما يداه فقد أمسكهما رجلان قعدا عند رأسه

والصورة - ٦ - وجدت ببنى حسن ، وهي أيضاً طريفة الموضوع ، تهم المؤرخ الفنى ، فهى توضح فى جلاء الطريقة التى اتبعها الفنانون فى التصوير ، فترى الفنان وقد جلس متوسطاً الصورة ممسكا ريشته بيمناه ، وكأس الألوان بيسراه ، مستمراً فى تكميل تصويره لعجل صغير بعد أن أتم تصوير البقرة . وأمامه جلس مساعده ممسكا لوحة التصوير

ووراء هؤلاء تشاهد فنانا آخر يلون تمثالا من الخشب أو الحجر ، كما كانت عادة المصريين دائما ، وكما سبق التنويه بذلك المثال فى الفائت

ومن هذه الصور الست ، التى لا تعد شيئا بجانب المئات التى تركها المصريون على حوائط معابدهم ومقابرهم ، يمكننا أن نستخلص أن الفن لا يكون إلا حيث توجد الحضارة . وأن مصر عرفت قيمته وعملت على ترقيته فى القرن العشرين قبل الميلاد ، ولكنها مع مزيد الأسف لاتعرفه ، ولا تعترف بوجوده ، ولا تفهم حتى مدى نفعه أو ضرورته فى القرن العشرين بعده ؛ ولا أبلغ مما قاله شاعرنا احمد الزين تسجيلا لهذه الحالة :

علام يجيد الفن فى مصر متقن ... إذا كان بالتهريج نيل المراتب
فياجهل واصلنا وياعلم فابتعد ... ويا حمق لازمنا ويا عقل جانب
أرى الجهل نوراً فى بلاد رجالها ... خفافيش يعشيها ضياء الكواكب
إذا الشعب بالاهمال أرسب عاليا ... فلا عجب لو يعلو به كل راسب

أحمد موسى

البريد الأدبي

العيد المئوى لوزارة المعارف

تحتفل وزارة المعارف العمومية فى التاسع والعشرين من مارس الجارى بمرور مائة عام على إنشائها ، وستنظم بهذه المناسبة حفلات رياضية وتمثيلية ، ويقام معرض للتعليم والتربية تستعرض فيه مراحل التعليم وتطوراته فى مصر مدى قرن ، ويوضع كتاب ذهبي يتضمن تاريخ التربية والتعليم فى هذا القرن إلى غير ذلك مما ترى وزارة المعارف أن تتخذه للاحتفاء بعيدها المئوى . والواقع أن المناسبات والاحتفالات المئوية فى تاريخ مصر الحديث قليلة ، ومن الواجب أن يعتنى بشأنها وأن يحتفى بها كلما سنحت ، تجديداً للذكريات القومية ، وشحذاً للهمم ، وتوطيداً لبناء المستقبل .

وقد مضت مائة عام كاملة منذ أنشىء « ديوان المدارس » فى سنة ١٨٣٧ ، أنشأه مصلح مصر الكبير محمد على ، بعد أن أنشأ من قبله عدة من المدارس العالية والخصوصية ، وأوفد عدة بعوث علمية إلى أوربا ، وبدأت ثمار هذه السياسة المستنيرة تتفتح ، ويتسع نطاق التعليم والتربية . وكان ثمة قبل إنشاء ديوان المدارس هيئة تشرف على التعليم تسمي بمجلس شورى المدارس ، فرؤى أن ينظم مكانه « ديوان المدارس » الذى أصبح فيما بعد وزارة المعارف ، واشترك فى تنظيم الديوان المذكور عدة من رجال مصر المثقفين الذين تلقوا العلم فى أوربا ، وانتخب لرآسته مصطفى مختار بك أحد خريجى البعثات فكان أول رئيس أو وزير لديوان المعارف المصرية ؛ وشكل للاشراف على أعمال الديوان مجلس مؤلف من عدة من النوابغ الذين يرجع إلى رأيهم فى شؤون التربية مثل رفاعة بك الطهطاوى ، وكلوت بك وغيرهما ؛ وقام المجلس المذكور بوضع لائحة لنظم التعليم ، وقرر إقامة عدد كبير من المدارس فى مختلف أنحاء القطر ، منها عشرات من المدارس الابتدائية الاميرية ، فى معظم المراكز ومئات المدارس الأولية أو الكتاتيب ، وبذا وضعت أسس النهضة التعليمية فى مصر الحديثة

ومما يؤثر بالفخر أن التعليم كان يومئذ فى جميع المدارس على اختلاف درجاتها وأنواعها مجانيا ، وكانت الحكومة تتولى الانفاق على التلاميذ ، وتعنى باطعامهم وكسوتهم ، وتجرى عليهم بعض الرواتب المالية ، وكان عدد تلاميذ المدارس الأميرية يومئذ يبلغ نحو العشرة آلاف

وتقلب فى ديوان المعارف عدة من رجالات مصر الأفذاذ مثل على باشا مبارك ، تولى سنة ١٨٨٨ ، وبذل فى تنظيم التعليم جهداً عظيما ، ولا تزال آثار هذا الغرس زاهرة إلى يومنا

ووقعت وزارة المعارف مدى حين تحت سيطرة الاحتلال ، وأخمدت روحها الاصلاحية أيام دانلوب ومعاونيه ؛ ولكنها بدأت تتنفس فى عهد الاستقلال ؛ ولكنها وأأسفاه مازالت مضطربة الأوضاع والنظم ، ولم توفق إلى أن ترسم لها حتى اليوم سياسة ثابتة للتعليم

الصور الهزلية فى الفن المصرى القديم

أصبحت الصور الهزلية من أبرز نواحى الفن المعاصر ، تتخذ أداة للتعبير اللاذع عن وقائع الحياة العامة ، وأحوال الأشخاص وتصرفاتهم ، وأضحت سلوة الألوف من القراء تثير ابتسامهم ومرحهم . وقد عرف المصريون القدماء فن الصور الهزلية ، وألفوا فيه متنفسا للنقد اللاذع والسخرية العميقة . وتوجد لدينا نقوش وصور هزلية تدل على مبلغ ما انتهى إليه الفراعنة من الافتنان فى هذا الباب ، فمثلا توجد نقوش على البردى ترجع إلى ألفى عام قبل الميلاد ، سطرت بها قصص عجيبة كقصص ألف ليلة وليلة من مناظر سحرية وشياطين وحيوانات تلعب أدوارا مدهشة ، وتوجد صور هزلية مسلية فى كثير من أوراق البردى المحفوظة فى تورينو ولندن ، ويبدو فيها شغف المصريين

بهذا النوع من تصوير الحياة العامة ؛ فالأمراء والوزراء وأكابر الزعماء يمثلون فى صور حيوانات مختلفة ترمز إلى معان هزلية . مثال ذلك صورة رسمت بها قطة تسير مضمومة الذراعين إلى جانب ثور مبجل (يمثل كبير البلاط) ، وهما يسيران معا للمثول فى حضرة خصى قد صور فى صورة حمار ؛ أو صورة لفرقة الموسيقى الملكية مؤلفة من تمساح يبكى تأثرا ، وحمار يعزف على القيثارة ، وأسد يعزف على العود ؛ أو أسد (يمثل فرعون) وحمار (يمثل وزيره) يلعبان الشطرنج معا ؛ وهكذا . وكان للفنانين المصريين شغف بتمثيل مناظر الحياة العامة فى صور مضحكة لاذعة ، فمن ذلك صورة ذئب يقود الغنم ، وهرة تحرس الطير ، وكلاهما رمز لفساد الحياة العامة ؛ وهذه الصورة التى ترجع إلى بضعة آلاف من السنين تدل على مبلغ ما وصل إليه فن التصوير الهزلى لدى الفراعنة فى القوة والروعة ، وعلى أن الفراعنة كانوا أيضا فى هذا الميدان أول الأساتذة والمبتكرين

كتاب جديد عن الاشتراكية الوطنية

ما زالت الاشتراكية الوطنية أو النظم التى تعيش فى ظلها ألمانيا الحاضرة مثار كثير من الجدل ، وقد ظهرت الى اليوم عنها تصانيف كثيرة بين الخصومة والتأييد ، ولكن روحها وغاياتها الحقيقية مازالت موضع الغموض والحدس

وقد ظهر أخيراً بالفرنسية كتاب جامع عن الاشتراكية الوطنية ربما كان أقوى وأوفى مؤلف ظهر من نوعه ؛ وعنوانه : « طغيان الفاشستية الألمانية » بقلم الآنسة جريته شتوفل La Dictature du Fascisme allemand ، ويمتاز الكتاب ، بالوضوح والترتيب ، وينم عن دراسة عميقة وفهم شامل للنظم التى تعيش فى ظلها ألمانيا الحاضرة . وقد استهلته المؤلفة بمقدمة تاريخية ، ثم تناولت سلطات الدولة الأساسية بالتعيين والشرح ، ففى شخص « الزعيم » (هتلر) تجتمع كل السلطات ، فهو رئيس الدولة ورئيس الحكومة ، وهو المتصرف المطلق فى جميع نواحيها الادارية والقضائية والعسكرية ، وهو المشرع الأعلى ؛ وهو يفوض سلطانه الى وزراء ، ليسوا إزاءه سوى موظفين أصاغر ، وأما الريخستاج (البرلمان) فهو اسم على غير مسمى ، فهو لا حق له ان يقترح أو يعارض ، وليس عليه إلا أن يوافق ويؤيد ، والحزب (حزب النازى) يندمج فى الدولة ، وهو مجمع الشعب ، ولا يقوم نظامه حسب قول هتلر « الأعلى السلطة والنظام والمسئولية والخضوع » ؛ ومن أدلة هذا الاندماج أن نفس الرجال يديرون الحكومة والحزب معا ، ورجال الحزب هم الذين يستولون على الوظائف ، وشعار الاثنين واحد هو « هايل هتلر » . بيد ان الحزب لم ينجح فى كسب الجيش ، ولكن الجيش فى يد « الزعيم »

وقد قضت الاشتراكية الوطنية على نظام ألمانيا الاتحادى واستأثرت الحكومة المركزية بكل السلطات ، أما النظام النقابى ، فيقوم على حشد العمال فى جبهة الاشتراكية الوطنية ، وتنظم جميع المهن والحرف فى طوائف تحشد فى نفس الجبهة . تحدثت المؤلفة بعد ذلك عن الخلاف بين الكنيسة والدولة وعن النظرية الآرية ومراميها الحقيقية ، وعن سياسة الاضطهاد الدينى والجنسى التى تضطرم بها الآن ألمانيا الهتلرية . هذا والطغيان الهتلرى لا يقوم إلا على الارهاب والعنف ، والقضاء خاضع لخدمة الدولة ، والتشريع الجنائى ليس إلا أداة للكفاح لا تعرف الرأفة أو العدالة ، وتقضى محاكم الشعب دون تحقيق ، وتسير فى قضائها تحقيقا لأهواء الحزب والزعماء . والخلاصة ان القضاء والبوليس والجيش والهيئات الحزبية تعمل كلها لسحق أعداء النظام وخصومه . ومع ان كل الحريات قد سحقت ، فانه توجد معارضة كامنة . والدولة النازية هى أتم وأوفى أداة للطغيان فى عصرنا ؛ بيد انها بوسائلها العنيفة فى الكفاح والقمع تنافى كل المبادىء والاعتبارات الاخلاقية والانسانية

هذه هى الصورة التى تقدمها الينا المؤلفة عن النظام الهتلرى ، وهى تقدمها الينا فى عرض بديع حقا مدعم بالأدلة والوثائق والاحصاءات . ويرى النقدة ان كتابها هو أقوى وأوضح بحث من نوعه ظهر حتى اليوم

حرب نيكوبوليس الصليبية

لعل أكبر الحوادث فى تاريخ الشرق والغرب هو تلك الحروب التى اصطلح المؤرخون على تسميتها بالصليبية ودامت عدة قرون ، تجلى فيها كثير من ضروب الفروسية والشجاعة مما يرى فيهما القصصيون مادة خصبة لهم . وقد كانت هذه الحروب ولا زالت ميداناً لكبار البحاث المؤرخين ، ولكنها

مع ذلك لا تزال بحاجة للدرس والتمحيص . ومن الوقائع الشهيرة فى تاريخ العالم الاسلامى موقعة « نيكوبوليس » التى وصل فيها الأتراك إلى قلب أوربا، وأصبحوا على أبواب المجر ، وهى مع مالها من أهمية قصوى لم يؤلف فيها أحد المتخصصين فى تاريخ العصور الوسطى كتاباً قائماً بذاته ، حتى قام بذلك أحد نوابغ الشبان المصريين الذى اختارته جامعات لندن وليفربول بانجلترا ، وبون بألمانيا أستاذاً بها ، ذلك هو الدكتور عزيز سوريال عطية ، فقد أفرد لها كتاباً خاصاً ألم فيه بما مهد لهذه الحرب . ويذهب المؤلف إلى أن الحروب الصليبية لم يكن بدء قيامها أو ختامها ما تآلفنا عليه ، بل هناك عدة حروب قبلها وبعدها كان الدافع لأوربا فيها على امتشاق الحسام عصبيتها الدينيه ضد الاسلام . ولقد أصدرت إحدى دور النشر الكبرى بانجلترا Methuen هذا الكتاب القيم Crusade of Nicopolis للدكتور سوريال . وبلغ من أهميته أن قرظه أعلام التاريخ فى انجلترا وفرنسا وألمانيا والمجر وأثنوا على صاحبه الثناء الجم ، فقالت جريدة التيمس فى ملحقها الأدبى : « إن هذا الكتاب دراسة رائعة عن الظروف السياسية والمالية فى نهاية عصر الفروسية فى أوربا » ، وختمت الديلى بوست تقريظها له بقولها : « إن مثل هذا الكتاب يكتبه أحد أبناء مصر لشيء يفخر به جميع المصريين . . . إن نهضة مصر فى طريقها » وقالت مجلة معهد الدراسات الشرقية بلندن : « إن هذه الاضافة العظيمة الرائعة للتاريخ هى من غير شك نتيجة بحث عميق وميل قوى للموضوع . . وإنه لينبغى لكل مؤرخ أو باحث لهذه الفترة أن تكون لديه نسخة منه »

وقالت جريدة الجارديان : « . . . تقرير شامل يعتمد على المقارنة الدقيقة لمراجع كثيرة » ، ووصفه الأستاذ وليم ميلر فى مجلة التاريخ الانجليزية بأنه « كتاب دسم » ، كما أثني على مؤلفه وموضوعه كثير من المجلات الأخرى كجريدة الحربية ، والجيش والجريدة الأسيوية . وقالت مجلة الثقافة الاسلامية الانجليزية بالهند: « إن تعمق الدكتور عطية فى هذا الكتاب لا يوفيه المديح حقه ، وإن التعاليق التى كتبها وإضافاته لهى بحث جديد يضاف إلى دراسته النقدية لهذه الفترة » ، وقالت مجلة J. R. .I. S « إن الدكتور عطية ملم بكل نواحى الحروب الصليبية ، وكتابه قائم على المصادر المعاصرة لها بل والنادرة أحياناً . . . وإنا لننتظر منه الكتاب الشامل الأكبر فى المستقبل » ، كما امتدحته مجلة « بلغارى » ، ومجلة الدراسات الشرقية الألمانية Orientalische Literaturzeitung فقالت : « ان هذا الكتاب أوفى ما كتب عن هذه الناحية ، وان مؤلفه ليعد حجة فى هذا الموضوع » ، ومع أهمية هذا الكتاب ، وتقدير أقطاب التاريخ له ومصرية مؤلفه فانه لم يترجم بعد .

تمثال شيخ البلد

قرأت بعدد الرسالة الأخير مقال الدكتور الفاضل أحمد موسى فى الفن المصرى القديم فاستوقفتنى تلك العبارة من كلامه عن تمثال (شيخ البلد) المعروف بالمتحف المصرى :

(وتمثال شيخ البلد تجده واقفاً فى شيء من اليقظة وضخامة الجسم التى يجب أن تتوفر فيمن يقوم بالشياخة الخ)

وقفت متسائلا : هل عرف النظام الإدارى القديم شيخ البلد كما تعرفه مصر الآن من أقصاها إلى أقصاها ؟ وبالتالى هل عرفت هوية صاحب هذا التمثال وعرف عمله فى الدولة ؟ أم أن الحقيقة هى ما قرأناه فى كتب التاريخ من أن عمال الحفر لما أخرجوا هذا التمثال من مكانه راعهم ما وجدوا من شبه قوى بينه وبين شيخ بلدهم فأطلقوا على التمثال (شيخ البلد) ثم لزمته التسمية ولم يغيرها علماء الآثار لما لم يعرفوا حقيقة صاحبه ولم يجدوا به من النقوش أو الكتابات ما يبوح بسره وينم عن جلية أمره ؟

وهل للدكتور الفاضل أن يميط اللثام عن حقيقة التمثال المذكور خدمة للعلم والتاريخ فنكون له من الشاكرين ؟

(م . ح بأسيوط)

الكتب

ملحمة عبقر

للشاعر المطبوع شفيق معلوف

رمى الكثيرون الشعر العربي بالعجز والقصور عن متابعة الشعر الغربي في القصة والملحمة والرواية التمثيلية ؛ ولكن ناظم عبقر ضرب لهؤلاء المثل الحي على أن العيب واقع على عاتق الشعراء أنفسهم لا على اللغة ولا الشعر . ولقد ظلت عبقر مدى العصور تتردد في ألفاظ كثير من الشعراء ولكن لم يفكر واحد منهم في أن يخرج لقراء الضاد قصيدة عنها بقدر ما توحي اليه من خيال ؛ كأنها أبت أن تكشف سترها وتميط اللثام عن حقيقتها إلا لهذا الشاعر المحلق في سماء الجمال، فحمله شيطانه إلى عبقر، وأوديتها السحرية ؛ وهناك كشف له سر الحياة، فوقف على المجهول من أمرها، حتى إذا عاد إلى دنياه صوره بلغة أهل الأرض ؛ فأبدع في ذلك ما شاء له الابداع، ورسم هذه العوالم الدفاقة بالسحر والخيال وقربها إلى قارئيها فاذا هم يعيشون ويتحركون ويتنفسون فيها، وإذاهم يحيون في مهابط الجن، ويقضون مع حورها لحظات لا يحسون فيها لغب الواقع، ولا تعب الحياة وأوضارها، ولست أدري أيهما خلد الآخر : هل خلق شفيق عبقر، أم هي التي خلقته؟

حمله شيطانه إلى عبقر ذلك الشيطان الذي :

في فمه من سقر جذوة   يطير منها الشرر الثائر
ووجهه جمجمة راعه   أنيابها والمحجر الغائر
كأنما محجرها كوة   يطل منها الزمن الغابر

ويمضي الشيطان بصاحبه إلى عبقر ليريه جنا من النور جلابيبها، وإذ يهبط الاثنان عبقر، يرى الشاعر «الغمائم الزرق» وفي أبراج المنازل «تثور ضجة بها يضيق الأفق الأوسع»، ثم يحط به الشيطان عند عرافة عبقر فاذا بها عجوز شمطاء طواها الكبر، ولقد أبدع الشاعر أيما إبداع في وصفها بقوله :

تلف ثعبانا على وسطها   يكمن في نابيه كيد القدر
بجامر الصندل من حولها   تألب الجن عليها زمر
ينبعث الدخان من شعرها   ويلتظي في مقلتيها الشرر
كأنما الله لدى بعثها   زودها بكل ما في سقر

وفي حديث العرافة له نرى الوصف المر الأليم للإنسان، وما انطوت عليه نفسه من مكر وخديعة، وترى روح التهكم تنبعث على لسان العرافة ساخرة بكبرياء ابن آدم وقد خال «نفسه أعلى من ربه» وحسب عيبه فضلا، وأية سخرية أشد وقعا مما انطلق به لسانها من أنها :

تخشى على الثعبان   من شره
في نابه السم كان   وصار في صدره

وينطلق به شيطانه إلى امرأة قد كورت من حلقات النور أضلاعها تلك هي «الشهوة»، وإن وصفه الرائع لها، ليجعل القارئ يخال الشهوة قد جسمت امرأة وهي تضج :

من لي بحب نوره ينبلج   من شرر محتدم في المقل
من لي بثغر لاهب تنفرج   ثغرته عن شعلات القبل
يا حامل الجسم ألا أعطنيه   وخذ إذا شئت خلودي ثمن
وشاحي الناري من يشتريه   فإنني أبيعه بالكفن .

ويمضي به الشيطان إلى الكاهن سطيح الذي يرى أن الله خلصه برحمته حين استل منه العظام، وملأ الفراغ من حكمته، أما الكاهن شق فقانع بنصفه، وما ضره أن حباه الله بيد واحدة إذ :

هل تنفع اليدان والواحدة   تهدم ما تشيده الثانيه

ويخلص القارئ من مغزى هذه الحكمة أن في النقص كمالا، ولكن الشاعر يهوى به الأسلوب في قوله «والله يهديني سواء السبيل» فهي نابية في موضعها لا تلائم الذوق الشعري، وإنك لتلمح رثاءه للبغايا وألمه لهن خلال وصفه الشعري الجميل لهن فهن :

دسن من الحديد مجمره   ورحن يقحمن البراكينا
يلغن في الجمر ويغببنه   غبا ويرشقن الشياطينا
زج بهن الله في عبقر   يبلو بهن العبقريينا

وينتهي بالشاعر المطاف عند رفات العبقريين من الشعراء والأدباء، وفي نشيد جماجم هؤلاء العباقرة تلمح تقديس الشاعر لهم، فهؤلاء أرواحهم تبني قباب الخلود «بغير أحجار الورى» وهم في موتهم يعيشون على .. الحب الذي :

إن كانت الأرض جحيماله   وكان فيها تهنأ الأرض

هذه جولة في عبقر المعلوف، فاذا كان فوزي قد حلق على «بساط الريح» فان أخاه في عبقر قد تغلغل في ثناياها مع حورها وكهانها وعرافتها وشياطينها

وإن خيال شفيق لمنسجم مع تفكيره، وهذا سر إبداعه، فلا جرم إذا حلق خياله من شاهق ولم يسف في شعره . ولا عجب إذا طالعنا ذلك الشاعر بنفحات من الشعر الخالد في لفظ متسق، وجمال مطبوع، وبيان عذب فصيح، وخيال لو قيل له اختر صاحبا لما اختار غير شفيق.

حسن حبشي